بائعة الكلمات

« روايـــه »

ريمـــة راعـي

obeikandl.com

بائعـة الكلمات

" روايـــه "

اسم الكاتبة: ريمـة راعـي

لوحة الغلاف: طيف علي

الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيـم

الطبعة الأولى: ٢٠١٧ م

رقم الإيداع : ٢٥١٨٩ / ٢٠١٧

المكتبة العربية
للنشر والتوزيع

١١٤ عمارات جنوب الأحياء – مدينة السادس من أكتوبر

موبايل و واتس : ٠١٠٣٠٣٦٥٨٠١

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية،

أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذنٍ كتابيٍّ من الناشر؛

يُعَرِّضُ فاعله للمساءلة القانونية.

obeikandl.com

إلى الكلمات

التي منحتني ظل فراشه

ريمة راعي

* * *

obeikandl.com

الفصل الأول

لا تقف على أرض وطيئة، ولا تصعد عالياً جداً،

العالم هو الأجمل، امض إلى منتصف المرتفع.

نيتشه

اسمي أفروديت، هكذا قررت أمي أن يكون اسم ابنتها البكر، ولم يستطع أحد من أقربائنا أو من جارات أمي إقناعها باختيار اسم آخر مألوف وأكثر بشرية. كانت تواصل حياكة جوارب مولودتها المنتظرة، دون إبداء أي رد فعل على الاحتجاجات التي تنهال عليها، وكذلك فعلت حين قال لها أبي، في شبه توسل، إن ثلاثة أرباع أهل القرية سيعجزون عن لفظ اسمي، وإنّي سأعاني كثيراً في تعلم كتابة هذا الاسم المعقد كثير الأحرف، سارداً أمامها أسماء أكثر بساطة وسهولة مثل: نور، رنا، سلمى، رشا ...، ولم ينس أن يشير إلى أني سأضطر إلى تكرار اسمي العجيب هذا أكثر من مرة حين يسألني أحدهم: ما اسمك؟ فأجيب: أفروديت. فيهز رأسه ويسأل: ها، ماذا قلت؟! وهنا ستكون لدي مشكلة إضافية في حال ورثت جينات عائلة أبي المعروفين بقلة الكلام، والمشهورين بتفضيلهم الأسئلة التي يمكن الإجابة عنها بنعم أو لا، بل هم غالباً ما يفضلون هزّ رؤوسهم إلى أعلى أو أسفل عوضاً عن الإجابة.

obeikandl.com

لكن في زحمة سرد أبي لأسباب كون اسمي لا ينسجم مع الحياة الواقعية، نسي أن يطرح السبب الأكثر جوهرية، والذي يجعل من اسمي مخاطرة كاملة الحماقة:

ماذا لو كانت أفروديت هذه تشبهك أو تشبهني يا امرأة؟!

لكن وبجميع الأحوال، وسواء أضاف أبي هذا الاحتمال إلى قائمة احتمالاته أم لا، فهو ما كان لينجح بجعل أمي تغير رأيها، أو حتى تعيد النظر في خيارها. كان عقلها قد صبّ فوق اسم أفروديت طبقة من الإسمنت الصلب، ولا سبيل إلى استبداله.

ولعل السؤال الوجودي الأول الذي وجهته إلى أمي بعد أن تعلمت تشكيل جملة مفيدة كان: ماما، من أين جئت باسمي البشع هذا؟

وصفي لاسمي، الذي لطالما تسبب لي بالإهانات والتعليقات الساخرة، بالبشع كان نتيجة فقر قاموس مفرداتي حينها، وجهلي بمصطلحات لغوية أكثر قوة وصرامة مثل: مذل، مهين، كارثي، خطأ لا يغتفر...إلخ.

أمي الفلاحة، التي كانت تعرف عن الأساطير والآلهة الإغريقية مثلما أعرف أنا عن علم الفضاء والذرة، ردت على سؤالي الناقم بسرد حكاية طويلة بطلتها والدتها، جدتي، التي كانت تعمل خادمة في بيت دركي فرنسي، كان رئيس مخفر القرية، أيام الاحتلال الفرنسي لبلادنا، وكانت زوجة الدركي امرأة فائقة الجمال، ولسوء طالعي كان اسمها: أفروديت.

وجدتي التي لم تر من الحياة إلا ذيل ثوبها الذي علق، عن غير قصد، بحدود قريتها الصغيرة بدجاجاتها وأبقارها ونسائها، اللواتي يطل البؤس من أوجههن التي حرقتها الشمس، اعتبرت أن تلك المرأة التي تملك شعراً أشقر يتدلى في خواتم على ظهرها، هي بلا شك ملاك سقط سهواً على هذه الأرض، فوحدهم الملائكة من يملكون هكذا وجه أبيض، وعينين زرقاوين، وابتسامة رضية تسمح لغمازتين عميقتين بالظهور الدائم على الخدين، لتخبرا أن السماء كانت متآمرة دائماً مع صاحبة هذا الوجه.

كانت جدتي تجد صعوبة في لفظ اسم سيدتها فتقول لها: ستي أفروتيت! وكانت السيدة تضحك، كانت تبدو لطيفة المعشر في تلك الحكاية، وتقول لجدتي: أنت تشوهين اسم آلهة الجمال يا بهيزة!

ولم تكن جدتي لتتجرأ، وتبادلها الاتهام بتشويه اسمها، بهيجة، فهي لم تكن تعلم أن بوسعها قول هكذا أمر لسيدتها، بل لعلها كانت تستمتع بتلك اللكنة المثيرة، والتي تضيف لحناً موسيقياً لاسمها، فيحمر خداها الغائران، وتقول لسيدتها: سامحيني يا ستي!

كل يوم، كانت جدتي تعود إلى البيت محمّلة بحكايات عديدة عن جمال وأناقة ورفاه سيدتها وحب الدركي الكبير لها. وبينما تفرم البقدونس، أو تقلي البطاطا، أو تفرك بالليفة جسد واحد من أولادها الأربعة، كانت تسرد الحكايات كما لو كانت شهرزاد، تمتلك ذخيرة قصص لا تنتهي، ولا تتوقف عن السرد حتى تتأكد أن الجميع قد غرقوا في النوم، فتبتسم للسياف كبير

الشاربين الذي ينتظر خلف باب البيت، وتضع رأسها بين رؤوس أولادها الغافين، وتنام .

و أمي قالت لي بصوت حالم إنها ماتزال تذكر تفاصيل أثواب أفروديت الحريرية، التي كانت جدتي تتولى وضعها في حمالات خشبية في الخزانة، والخلاخيل والأساور والأطواق الذهبية التي يوصى بها الدركي أحد صاغة حلب المشهورين لصناعتها خصيصاً لأفروديت، والأحذية المزينة بزركشات ذهبية، ذات الكعوب الرفيعة العالية، والتي ستعجز أية امرأة من القرية عن السير في مثيلاتها، و أصص التوليب التي أحضرها الدركي بنفسه من المشتل، وأمر الخدم بتوزيعها على شرفة البيت الكبيرة، كي تمتع أفروديت عينيها وأنفها. أما نصيب الأسد من تلك الحكايات فكان للقط الأبيض، تومي، الذي كان الشغل الشاغل للسيدة، و لم تكن تقبل أن تقوم جدتي بتنظيفه، بل كانت تحممه بنفسها بشامبو معطر، وكانت جدتي تقسم أنّ ما يأكله ذاك القط السمين المغرور من لحم في الأسبوع يعادل ما يأكله أهل القرية جميعاً خلال شهر.

كانت أمي، صاحبة الأذنين الهائمتين بالحكايات، تترك لمخيلتها نسج حكايات إضافية عن ثريات لامعة، وحفلات راقصة، وموائد ضخمة. وكانت تتدرب في سرها على نطق اسم بطلة الحكايات تلك حتى يرسخ في ذاكرتها، ولا تنساه أبداء ولضمان ألا يغيب هذا الاسم عن بالها أبداً أطلقت على الدجاجة الوحيدة التي تتمتع بريش أبيض بين دجاجات القن بنية الريش،

اسم أفروديت، وكانت تتعمد مناداتها على مدار اليوم، وغالباً ما كانت تعاملها معاملة خاصة حين ترمي البرغل للدجاج كل صباح، حيث تحرص على أن تنثر كمية كبيرة أمامها، غير مدركة أنها تتسبب لها بعراكات شرسة مع بقية الدجاجات.

وفي ذلك الوقت اتخذت سعادات القرار الأول والأخير في حياتها، بأن يكون اسم ابنتها أفروديت. مؤمنة بأنّ هذا الاسم سيمنحها حتماً حسن طالع الربات، الذي حرمت هي منه نتيجة سوء توزيع كوني للجمال والحظ.

ورغم أنني أجزم بأنّ أمي حين وضعتني القابلة بين ذراعيها، وبينما تحدق ملياً في تضاريس وجهي الأسمر الصغير، لم تجد فيه ما يشي بهيئة الربات أو مصائرهن، لكنها بقيت متشبثة بموقفها بعناد أثار دهشة الجميع، وخاصة أبي الذي وصف تشبثها بهذا الاسم بأنه عناد بغل!

كان أبي مشوشاً وعاجزاً عن تفسير كيف أن زوجته، التي لم تعترض على شيء في حياتها، بدءاً من منعها وهي صغيرة من الذهاب الى المدرسة لتساعد أهلها في فلاحة الأرض، وصولاً لتزويجها بأول رجل طرق باب بيتهم، أصبحت فجأة عنيدة وجلفة، بل وتملك صوتاً عالياً يصيح: لن أسميها إلا أفروديت!

صياحها العالي ذاك كان غصة في قلبه، هو الذي لطالما استمتع بصوتها الخفيض الذي بالكاد يسمع، وكان يتباهى بين أصحابه بأنه لم يسمع يوماً صوتاً عالياً في بيته.

وهكذا توجب علي أن أحمل وزر حلم أمي العبثي، وصار اسمي أفروديت!

اليوم الأول من المدرسة في كلّ عام ، كان اليوم الأكثر بؤساً من أيام السنة، فمع انتقالي إلى صف جديد، واضطراري للتعريف بنفسي أمام أستاذ مختلف عن أستاذ السنة السابقة، كنت أستمع كلّ عام إلى اللازمة ذاتها بعد أن أقول اسمي اللئيم: آه، آلهة الجمال !!!

وغالبا ما تكون تلك العبارة مترافقة مع نظرات متفرسة في تفاصيل وجهي، مع ابتسامة خبيثة كفاية للفت أنظار الأولاد الآخرين إلى وجود خلل ما في اسمي، هذا الخلل الذي سيجعلني هدفا لتنمرهم، وتعليقاتهم الساخرة طيلة العام.

كانت متعتهم الكبرى أن ينتظروا مروري قربهم كي يضحكوا مشيرين إلى شعري الخشن العصي على التمشيط، صائحين: خنفساء، خنفساء! أو يضعوا أكفهم أمام أنوفهم كما لو كانوا يقبضون على كرة ضخمة بينما يصيحون: آلهة الجمال القبيحة!

وكنت أعلم في قرارة نفسي أنه لو كان اسمي بهيجة مثل جدتي، أو سعادات مثل أمي، لما لفت قبحي نظر الآخرين. فأنا في الواقع لم أكن أكثر قبحاً ممن يتنمرون علي، لكني موصومة باسم ربة الجمال التي كنت ألعنها كلّ يوم.

obeikandl.com

وإضافة إلى أنّ السماء لم تمنحني مزايا اسمي من جمال الوجه والجسد، فإنّ الأرض كذلك لم تمنحني رفاهية الربات، وتربعهن الكسول على العروش. فمع بلوغي العاشرة كانت يداي الصغيرتان قد باتتا خشنتين ومليئتين بخدوش كثيرة بسبب مساعدتي أمي في العمل بالأرض، مضاف إليها مهامي اليومية بتنظيف قن الدجاج، وإطعام بقرتنا. وبالمناسبة بقرتنا تلك كانت تملك اسماً جميلاً: عزيزة، أطلقته عليها أمي، وكنت في سري أحسد عزيزة على اسمها الذي كان اسم على مسمى، فقد كانت مدللة أمي ونقطة ضعفها، تغني لها وهي تحلبها، وتقول لمن يفاجئها تغني للبقرة: يفعلون ذلك في الدانمارك لإدرار الحليب.

كانت أمي قد رأت ذلك الأسلوب الحضاري في معاملة الأبقار في إعلان للزبدة على التلفاز، تظهر فيه بقرة تغالب النعاس، بينما تستمع إلى حكاية ما قبل النوم يرويها لها رجل، له مظهر جنرال في سرية مختصة بدلال الأبقار، و كانت أمي لا تنسى أن تسرد أيضاً تفاصيل إعلان آخر تظهر فيه فرقة مراسم يقدم أفرادها وجبات على أطباق كبيرة لبقرة تشبه عزيزة، تبدي امتعاضها من محتوى الأطباق بإصدار خوار جاف مترافق بإزاحة رأسها جانباً، ويستمر الاستعراض إلى أن تروق لها إحدى الوجبات، فتهز رأسها مطلقة الخوار السعيد المنشود.

يا للخيال المدهش لصانعي الاعلانات! و يا لحظ عزيزة بوجود أمي، التي كانت تعتبرها عمود البيت، فبعد وفاة أبي اختارت أمي أن تنفق التعويضات،

التي قدمها لها معمل الرخام الذي كان يعمل به لشراء عزيزة، وبفضل حليبها والجبن الذي كنا نصنعه منه، كنا نعيش حياة كريمة، دون أن نحتاج معونة من أحد.

ورغم قسوة أمي وتشددها علي بمساعدتها في كلّ شيء، إلا أنّها كانت تتغاضى عن طلب خدماتي حين تراني أدرس. فهي كانت تعتبر الدراسة طريقة محتملة لأحظى بمصير الربات يوماً ما.

كانت تبتهج كلما رأتني أحمل دفاتري، وأسير نحو شجرة الجوز لأتربع تحتها وأكتب وظائفي. حينها فقط كانت تبتسم لي كما تبتسم لعزيزة، وتقول : الله لا يضيعلك تعب يا أفروديت. وهذه كانت وسيلتي السحرية للتملص من العمل لساعات طالما أن الدفتر موضوع في حضني، رغم أني غالباً ما كنت أشرد عن الخربشات التي في الدفاتر، وأحلم بأنّي يوماً ما سأعيش في بيت يملك شرفة مرتفعة تطل على شارع تعبره السيارات، ولا تسمع فيه أصوات الزيزان طوال الوقت، وليس فيه قن دجاج علي تنظيفه، و لا دجاجات لئيمات لا يشبعن أبداً، والأكثر أهمية: لا تخور بقرة تحمل اسماً بشرياً أمام بوابته.

obeikandl.com

الفصل الثاني

كانت الفرقة تتقدم عبر حقل الألغام، وعلى رأسها عازف قربة وصوت المزمار الذي كان يقود الجندي إلى المعركة، كان الشرك الأجمل في العالم.

كولن مكلو

صدحت موسيقا بحيرة البجع كاسرة السكون الذي كنت قد بدأت آلفه حولي، وبات معه أي صوت خارجي نشازاً نافراً يجعل قلبي يدق بعنف. لم أتكبد عناء إلقاء نظرة على شاشة جوالي، بل مددت يدي، وأنا ما زلت مغمضة العينين، ومسحت بأصابعي على الشاشة لإسكات الرنين.

هذا المنبه الأسبوعي لموعد جلسة العلاج الكيميائي، لكني كنت قد قررت البارحة أني لست مضطرة لتقيؤ ذلك السائل الأزرق مجدداً.

دقائق قليلة، وعاود الجوال الرنين، لكن هذه المرة صدحت أغنية فيروز: (بيت ظغير بكندا)، حسناً، هذا ليس منبهاً، لكني أيضاً لست مضطرة للإجابة، لكني لم أحاول إسكات الجوال هذه المرة، إذ لم يبد سيئاً الاستماع إلى تلك الأغنية السعيدة في صباح لا أمل فيه.

obeikandl.com

لم يتوقف الجوال عن الرنين، كان كلما توقف عاد ليرن من جديد. رفعت رأسي عن الوسادة، ونظرت إلى الشاشة، لمحت رقماً طويلاً، تمعنت في كود الاتصال الدولي، إنه اتصال من لبنان. الرقم الغريب والإصرار على معاودة الاتصال، أثارا فضولي، الذي كنت قد تصورت أنه تلاشى تماماً، وكنوع من الامتنان لكوني شعرت بهذه المشاعر البشرية التي فارقتني منذ أمد طويل، ضغطت على الزر الأخضر، وهمست: نعم؟

فاجأني صوت باذخ الحيوية: سيدة أفروديت؟

أجبت ببرود: نعم.

- أنا الصحفية عليا الأحمد.

آه ! مقدمة برنامجي المفضل! التي لطالما أحببت جرأتها، ومواضيع برنامجها، الذي تناقش فيه دون رتوش أو خطوط حمراء كلّ ما هو مسكوت عنه في المجتمع العربي، واستعدت خلال لحظات الحلقة الخارقة، التي تناولت المثليين في المجتمعات العربية، والذي يرفض الجميع الاعتراف بوجودهم، وربما حتى المثليين أنفسهم، الذين ظهروا خلال الحلقة بأوجه مغطاة بأقنعة بلاستيكية، وأصوات معالجة، خوفاً من افتضاح أمرهم أمام أقاربهم وجيرانهم. ولعل خوفهم كان في محله، إذ أثارت تلك الحلقة ردود فعل عنيفة، اعتبر أصحابها أن الاعتراف بوجود المثليين ومحاورتهم هو بمثابة تكريس لحضورهم الشاذ والمرفوض في المجتمع.

بنبرة أكثر لطفاً همست: أهلا بك أستاذة عليا!

obeikandl.com

قالت: أنا أعمل على إعداد حلقة عن الرصاص الطائش، وعلمت أن ابنك رحمه الله قد قضى منذ أشهر برصاصة طائشة، وأتمنى أن تقبلي دعوتي وتكوني ضيفة حلقتي.

«الرصاص الطائش» كم هو مصطلح فقير، ولا يعبر عن هوية ذاك الرصاص.

لماذا لم يبذل أحد جهداً لإطلاق اسم عليه، أكثر بلاغة من كلمة طائش؟

كان هذا المصطلح يتوازى في عقلي مع مصطلح عجيب آخر قفز إلى قاموس المصطلحات السورية بعد الحرب: «من لم تتلوث أيديهم بالدماء السورية». هذا المصطلح يرد عادة في المراسيم، التي يصدرها الرئيس بين الحين والآخر للإعفاء عن المعتقلين المشاركين في الثورة، والذين يسلمون أسلحتهم معلنين أنهم لم يستخدموها للقتل. ولطالما أضحكتني فكرة أن على المسلح أن يحرص على ألا تتلوث يديه بدماء ضحاياه، تحسباً ليوم العفو هذا، وقد يكون ارتداء قفازات أمراً نافعاً أيضاً.

وبالعودة إلى مصطلح الرصاص الطائش، يبدو مناسباً لي تسميته: «رصاص متغول»، فمن غير المتغولين لا يملكون وسيلة يعبرون بها عن ابتهاجهم أو غضبهم إلا ببعثرة الرصاص يمنة ويساراً؟

هو مصطلح سوري، لا أعلم إن كان موجوداً في قواميس أبناء الثقافات الأخرى، التي تفترض أن الرصاصة تكون عادة موجهة نحو هدف محدد، وهذا ما يبرر استخدام كلمة رصاصة كتعبير مجازي عن الدقة، فيقال: كان

مندفعاً كرصاصة تعرف وجهتها! هذا ما قالته لي صديقتي الفرنسية، التي لم تفهم كيف يموت ابني في بلاد، تعيش الحرب منذ سنوات، برصاصة لم يطلقها عدو!

بصعوبة شرحت لها أن الرصاص الطائش هو عرفنا الخاص بجيشان المشاعر، في مواكب تشييع الشهداء، وفي استقبال المخطوفين المحررين، وفي أية أفراح محتملة وسط هذا الخراب، كما حدث يوم محاولة الانقلاب الفاشل على الرئيس التركي رجب طيب أردوغان، الذي يعتبره السوريون أحد داعمي الإرهاب والقتل في البلاد، ورغم فشل الانقلاب عليه راحت مئات الرصاصات سدى في الهواء دون ندم. وأيضاً حين فاز رئيس الجمهورية في الانتخابات الرئاسية، شهدت يومها البلاد نيراناً كانت كافية لإشعال جبهة. ولعل هذا الطقس المنفلت من عقال التحضر، قد بات عرفاً لدينا نتيجة توافر السلاح والذخائر في أيدي الجميع، فمعظم الشبان باتوا إما مقاتلين في الجيش النظامي، أو في صفوف القوات الرديفة، التي تم تشكيلها لمساندة الجيش في الحرب، التي تدور منذ سنوات، ولا يمكن تحديد من عدو من فيها، إذ يبدو أن العالم بأسره يتحارب على أرضنا: موالون للنظام الحاكم، ثوار مسلحون، متطرفون إسلاميون، دول حليفة للسوريين، دول متحالفة عليهم. علماً أن ثمة إشكالية كبيرة في الاتفاق على التمييز بين (الذين معنا) و(الذين علينا)، فمن يراهم (سين) من الناس أنهم يحمون البلاد يراهم (عين) أنهم

يحتلونها، والعكس صحيح أيضاً. علاوة على وجود تحفظات وإشكاليات حول كيفية استخدام (نا) الدالة على الجماعة.

مدينتي الصغيرة اللاذقية الواقعة على الساحل السوري، غرب العاصمة دمشق، المشهورة بكونها خزان المقاتلين المنتشرين على جميع الجبهات، والذين غالباً ما يعودون إليها في صناديق خشبية ملفوفة بالعلم، كانت واحدة من المدن التي شهدت العدد الأكبر من ضحايا الرصاص الطائش، سواء خلال مواكب التشييع اليومية، أو أثناء الاحتفالات سابقة الذكر، والمضحك المبكي أنه خلال تشييع هؤلاء الضحايا يتم إطلاق الرصاص أيضاً في ملهاة رهيبة لا تنتهي، لكن يبقى الأكثر تراجيدية هو إصرار ذوي الضحايا على تسميتهم شهداء، دون أن يتساءلوا شهداء ماذا أو من؟ ما داموا قتلوا برصاص صديق كما يقال، ومادامت الحكومة امتلكت ما يكفي من الحكمة كي لا تعطيهم تراخيص لدفن أبنائهم في مقبرة الشهداء.

الخلاصة أن رحى الحرب تدور كل يوم طاحنة عشرات الشبان المتناثرين على الجبهات، يقتلون ويُقتلون، ومن لا يقتل في المعارك، قد يصطاده موت مجاني طائش في أحد الشوارع.

الجميع في هذه البلاد إما موتى أو ينتظرون موتهم، ففي نهاية المطاف، الموت وزع مصائده في كل مكان، وجلس ينتظر.

الفصل الثالث

منذ طفولتي المبكرة اضطررت لقطع تعليمي،

كي أذهب إلى المدرسة.

جورج برنارد شو

- **هل تحبين القراءة يا أفروديت؟**

سألني الأستاذ سعد، وقد أخفض رأسه قليلاً، وراح يحدق في وجهي من فوق نظاراته الذهبية المدورة، بعد أن كان على امتداد ساعة كاملة يتعامل بصبر مع عراك أخي فتحي مع القلم، بينما يحاول أن يرسم عدة أحرف على ورقة بيضاء كبيرة.

كان قد لاحظ نظراتي المثبتة على المكتبة الكبيرة، التي تحتل جداراً كاملاً في الغرفة، وتصطف فيها مئات الكتب متلاصقة قرب بعضها البعض، علاوة على أخرى لم يعد لها متسع فوضعت فوق بعضها بعشوائية، وإضافة للمكتبة التي تكاد رفوفها تنهار من ثقل حمولتها، كان ثمة كتب مرمية بفوضوية فوق الطبقة الخشبية، التي تشكل قاعدة طاولة زجاجية تتوسط الغرفة، ويعلوها تمثال أخضر اللون لرجل بدين، أجرد الرأس، عاري

obeikandl.com

الصدر، يضع مئزراً حول خصره، عرفت لاحقاً أن اسمه بوذا، وعلى جانبيه تمثالان صغيران لأسدين، تحيط بهما أيضاً كتب وجرائد مكدسة فوق بعضها. وكان الأستاذ سعد قد أساء فهم شرودي في تلك الكتب، فحسب أنني هائمة بأغلفتها اللماعة ذات الألوان الجميلة، والعناوين الغريبة، لكني في واقع الأمر كنت أفكر بعدد السنوات، التي أضاعها الأستاذ سعد وأبوه من قبله في تجميع هذه الكتب وقراءتها، بدلاً من تمضية الوقت بفعل أشياء أكثر بهجة، وكنت أشعر بأسف حقيقي على الأموال التي أهدرت في شرائها، والكفيلة بإطعام قريتنا كلها لعدة أعوام متلاحقة.

لكني وقد كنت حينها فتاة صغيرة متيمة بذلك الكائن الأنيق، الذي لم أكن أتصور وجود شبيه له في أي عالم محتمل، لم أستطع أن أخيب ظنه، وإن تمرد لساني علي فلم أستطع أن أجيب على سؤاله، بل اكتفيت بهز رأسي موافقة.

حتى ذلك الوقت كانت مفردة كتاب تعني بالنسبة لي كتب المدرسة، التي ما أن تتبادر إلى ذهني حتى أذكر السأم، والشرود، والعصافير التي تضرب بأجنحتها داخل المعدة، والأسوأ: ضربات عود الرمان على الأيدي المتيبسة من البرد، والمخصصة لكل من ينسى وظيفته أو كتابه. إذ كان واحد من قوانين مدرستي ينص على أن عدم إحضار الطالب الكتاب معه، هو دليل على أن غايته من الحضور إلى الصف هو اللهو، بينما المطلوب هو الحملقة طيلة الوقت في الكتاب.

وهذا الذنب كان يستوجب ضربة غير رحيمة على باطن الكفين باستخدام عود رمان ثخين، كان يستبدله بعض الأساتذة، بهدف اللحاق بركب الحضارة، بمسطرة خشبية لها ذات المفعول لكن بمظهر أقل بربريةً.

وحتى اليوم ما زالت استعادة تلك الذكرى كفيلة بإثارة الكرب في نفسي، حين دخل الأستاذ إلى الصف، وصاح: من نسي كتابه اليوم؟ يومها رغب خلدون بالمزاح معي، وخلدون هذا كان يليق به تأدية دور الوغد في أي فيلم سينمائي، بعينيه الصغيرتين الغائرتين تحت خدين ضخمين أحمرين، وكرشه المهول، ويديه الضخمتين، اللتين إن أطبقتا على ولد من الأولاد تتركان عليه بقعاً زرقاء لعدة أيام، وكان يرافقه دائماً ولدان نحيلان يتبعانه أينما تحرك، ويضحكان ملء شدقيهما لنكاته البذيئة، وتعليقاته المهينة على أولاد الصف، الذين كانوا يتلقون الإهانات بصمت وصبر فريدين. ومن البديهي طبعاً أني كنت مادة غنية لسخريته ونكاته. أما مزاح خلدون معي، فكان سرقته كتاب الرياضيات من محفظتي القماشية، التي أعلقها على مسند مقعدي، ولا أعلم إن كان اختياره كتاب الرياضيات جاء اعتباطياً أم مقصوداً، لأن أستاذ الرياضيات كان من الأساتذة المتشبثين بأسلوب التأديب بعود الرمان، والذي ترك يومها علامات حمراء على كفي المتشققتين من برد كانون القاسي، وفي نهاية اليوم الدراسي، وبينما

أتهيأ للخروج من الصف، بكتفين محنيين، رمى خلدون الكتاب على الأرض أمامي، وهو يقهقه.

لهذا، لم يكن يمكن للكتاب أن يكون بالنسبة لي أكثر من احتمال ضربة مسطرة أو زفرة سأم، لكن في ذلك اليوم، ولأن الأستاذ سعد رغم مواهبه العديدة لم يكن يحسن قراءة الأفكار، نهض من مكانه خلف المكتب الخشبي الكبير، ووقف أمام المكتبة لعدة دقائق راح يجول خلالها بعينيه بين الكتب، وسرعان ما مد يده إلى أحد الرفوف، والتقط كتاباً، ومد يده التي تمسك به نحوي.

لا أعرف كم مر من الوقت، وأنا أحملق بدهشة في غلاف الكتاب المرسوم عليه فتاة ذهبية الشعر ترتدي ثوباً سماوياً، وتضع كتاباً في حجرها بينما تنظر إلى رجل جالس قربها على كرسي ضخم، يرتدي بذلة زرقاء أنيقة، وخلفهما مدفأة مشتعلة، لكن الرجل رغم أناقته كان يملك وجه قرد!

وبصوت خفيض قرأت العنوان: «جميلة والوحش»!

رغم أنني أدعي دائماً أنني لم أحظ يوماً بالحظ بصورته المتعارف عليها بين البشر، والمتمثل بأن يولد المرء بخلقة جميلة تتكفل بفتح الأبواب أمامه دون عناء، أو موهبة خارقة يستحيل تجاهلها، أو الانتماء إلى عائلة ثرية تمثل بطاقة عبوره المضمون والآمن نحو كل ما يلهث الآخرون للوصول إليه في

الحياة، إلا أنني مع ذلك أعتبر أن القدر الذي قاد خطواتي نحو الأستاذ سعد، كان حظاً بهي الطلعة، فلت من تعويذة سوء الطالع الخاصة بي، وكان ذلك اللقاء كافياً لتغيير قدري مرة واحدة وإلى الأبد.

ودون عناء يذكر تم تأمين الخيوط العجيبة، التي عادة ما يستخدمها القدر لحياكة مصائر البشر، ونسجها في نول واحد، دون ذائقة فنية أو حس جمالي. وبهذا الحس السريالي كان أخي الصغير فتحي، الذي نادراً ما كان مفيداً في أي شيء، هو النول، الذي نسجت عليه بحرفية بالغة خيوط حياتي المصنوعة من الخيش البائس، مع خيوط الأستاذ سعد الحريرية.

فحين بلغ فتحي السابعة من عمره، وهو لا يزال عاجزاً عن كتابة الأحرف، أو تهجئتها بصورة صحيحة، صار جلياً أن ثمة خللاً ما يعيق تعلمه، وهذا ما أكده لأمي أستاذه في المدرسة، الذي أقسم أن رأس أخي الكبيرة لا تتعدى كونها طبلاً أجوف، معترفاً أنه عبثاً جرب جميع الوسائل مع تلك الرأس، حتى عود الرمان الشهير بفعاليته في التعليم عجز عن تعليم فتحي الصغير.

معضلة فتحي تلك تزامنت مع قدوم الأستاذ سعد إلى قريتنا بعد غياب سنين طويلة، حيث أضيئت بمجيئه أضواء منزل آل كامل الذي كان يتصدر مدخل القرية، وكنا نعتبره بمثابة قصر صغير، بالأحجار النافرة التي تغطي جدرانه الخارجية، ونوافذه الكبيرة ذات الزجاج الملون، والأسدين الرخاميين

على جانبي مدخله، وأشجار الخوخ والتفاح والدراق الموزعة في حديقته، والتي لطالما قفزنا أنا وفتحي عن السور الحجري، لنسرق ثمارها.

كان المنزل قد بات مهجوراً بعد وفاة والده منذ عدة سنين، واعتقد أهل القرية أن الشاب الثلاثيني قادم من باريس، ليبيع البيت والأراضي التي ورثها عن أبيه، ويرحل مجدداً، لكن سرعان ما انتشرت أخبار جديدة تؤكد أنه لن يرحل قبل وقت طويل، لأنه عاكف على إنجاز كتاب يضم الأعمال الشعرية الكاملة لأبيه الراحل، وكانت ثرثرات أهالي القرية تجزم بأن الأستاذ كان يشعر بالذنب تجاه أبيه، لأنه لم يزره منذ سنوات، وتوفي دون أن ينال رضاه كما يفترض بالأبناء الأبرار.

كان الأستاذ سعد يحمل شهادة بكالوريوس في علم النفس، و دكتوراه في العلوم الإنسانية حصل عليها من إحدى جامعات باريس، علاوة على كونه شاعراً كأبيه. ونظراً لهذه المزايا التي كان أهالي القرية يتحدثون عنها بإعجاب، فقد قررت أمي أن تستشيره بحالة فتحي، مستغلة علاقة صداقة قوية كانت تربط والده بأبي، حيث كانا رغم الفوارق الاجتماعية والثقافية صديقين حميمين، بدأت صداقتهما مذ كانا رفيقين في المدرسة يتشاركان عرائس الزيت والزعتر، حتى شاخا وصارا يتشاركان شرب العرق، ولعب طاولة الزهر، والمشاوير النهارية في البساتين، والتسكع المسائي في طرقات القرية، وخلال السنوات الأخيرة التي سبقت وفاتهما، باتت هذه الطقوس يومية وتمتد لساعات طويلة.

استقبلنا الأستاذ سعد في صالة البيت الكبيرة، التي كان كل ما فيها يلمع كما لو سكبت عليه نجوم كثيرة، بدءاً من البلاط الرخامي وصولاً إلى الثريات والتماثيل والشمعدانات الفضية ومزهريات الكريستال الموزعة في كل مكان. كانت الخادمة قد أنهت عملها اليومي وغادرت، لذا أحضر لنا الأستاذ بنفسه عصير برتقال طازج موضوع في كؤوس زجاجية ذات عنق طويل، وقدم لي ولفتحي قطع شوكولا مغلفة بغلاف فضي ذهب لمعانه بقلبينا. كنا نتأمل الأستاذ بذهول كما لوكان قادماً من كوكب آخر، بقميصه الأبيض المكوي بعناية والمفرود فوق بنطال كتاني عسلي اللون، وعينيه اللتين تبتسمان باسترخاء كما لو كانتا قد عثرتا مسبقاً على كل ما تبحثان عنه، وبات بإمكانهما التأمل دون عجلة في كل ما تصادفانه. كان طويل القامة، نحيلاً، كثيف الشعر، تنسدل خصلات شعره الأسود فوق جبينه بين الحين والآخر، فيعيدها إلى الخلف بحركة جانبية ساحرة من رأسه.

وبعد بضعة أسئلة وجهها الأستاذ إلى فتحي الصغير، تبين أن غباءه له مصطلح أكثر لطفاً للتعبير عنه: (صعوبات تعلم). ونظراً لاستحالة إرسال أخي إلى إحدى مدارس المدينة التي تعنى بحالات مشابهة، تطوع الأستاذ سعد لتعليمه كتابة الأحرف وتهجئتها، وكانت تلك الشهامة على الأغلب بدافع الوفاء لذكرى أبيه، الذي علم من أهالي القرية أنه مات بين ذراعي صديقه الوحيد، الذي تولى إسعافه إلى المستوصف بعد أن أصيب بسكتة قلبية

بينما كان يرمي حجر النرد الأخير. وكانت تلك هي لعبة النرد الأخيرة لأبي أيضاً، إذ توفي بعد مرور شهر واحد على وفاه صاحبه.

وهكذا تحالفت شهامة الأستاذ سعد النادرة مع صعوبات تعلم فتحي، لتفتح أمامي أبواب مغارة علي بابا، وأحظى بولادة جديدة، وأحصل على هويتي الجديدة التي سترافقني ما تبقى من عمري.

obeikandl.com

الفصل الرابع

بع جملك واشترحصاناً، الجمال خائنة
تسير آلاف الخطى دون أن تبدي أية إشارة تدل على تعبها
وفجأة تقع على ركبتيها وتنفق.

باولو كويلو

بقلب منكمش وقفت أمام المرآة أتأمل المرأة البائسة التي تحملق بي بعينين ذابلتين تطلان من وجه متطاول هائل الشحوب. إحساسي بالغربة عن وجهي قادني إلى الانتباه إلى حقيقة أنني لم أنظر في المرآة منذ أسابيع. كما أن التزامي المنزل طيلة الوقت وأنا مرتدية قمصان النوم الواسعة، جعلني أغفل عن الكيلوغرامات العديدة، التي فقدتها خلال سباتي الشتوي الذي تصورت أني لن أصحو منه ثانية، لكني حين ارتديت بنطالي الجينز، صدمت بكونه قد بات مهلهلاً علي، ولأن لا شحوم متبقية عند وركي لتحافظ على جزء البنطال العلوي في مكانه، وخوفاً من ارتخائه عن خصري، وانكشاف بطني وظهري في أية لحظة، ارتديت قميصاً فضفاضاء أسود اللون يكاد يبلغ ركبتي. ورغم أنني بدوت شبيهة بمهرج غير مضحك إلا أنني أطلقت زفرة رضا حين انتهيت من مهمة تهيئة نفسي لاستقبال ضيوفي المنتظرين، وإن كنت لم

أحاول فعل شيء لتحسين مظهر وجهي، إذ كانت تلك مهمة مستحيلة، بعد أن غارت وجنتاي، وبرز أنفي إلى الأمام، وأحاطت هالتان سوداوان بعيني.

كان مراسل المحطة اللبنانية يتجول في بيتي بأريحية أثارت امتعاضي، لم يكن قد توقف عن الكلام منذ فتحت له باب الشقة ليدخل برفقة طاقم التصوير المؤلف من مصور ومساعد مصور، أخذوا جميعاً يتصرفون كما لو كان بيتي ملكاً مستباحاً لهم، يزيحون الأرائك، يسدلون الستائر، يشعلون الضوء، يطفئونه، يحضرون كراس من المطبخ، ينزعون صورة عن جدار ليضعوها على جدار آخر. كنت واقفة في إحدى الزوايا بذراعين متشابكتين على صدري، أراقب المراسل الشاب صاحب الوجه العابس، والذي يملك خطين محفورين بعمق بين حاجبيه، يتناقضان مع عمره الصغير. كان جهازه الخليوي لا يتوقف عن الرنين، وكان يجيب على المكالمات، وفي الوقت ذاته يتابع إعطاء إرشاداته للمصور، كما لو كان رجلا آلياً مبرمجاً على الكلام دون توقف. وبينما أتأمل انهماك فريق المحطة في التحضيرات كنت أفكر بأن هذه المهنة تقولب العاملين فيها، وتحولهم إلى كائنات باردة القلب، تنظر إلى الأشخاص والأمكنة على أنهم مجرد أدوات لتركيب مشهد، لكني في الوقت ذاته فكرت بأن هذا قد لا يكون بالغ السوء، إذ أن الحالة المناقضة والتي تتضمن التعاطف والحساسية والتأثر، قد تكون كفيلة بتدمير حياة من يمتهن ملاحقة حكايات الناس وفجائعهم.

obeikandl.com

كنت أشعر بالوهن، فقد أمضيت الليلة الماضية في تنظيف البيت الذي كان نائماً مثلي منذ أسابيع، تحت طبقة سميكة من الغبار، وبيدين مرتجفتين أخرجت الإطارات الذهبية من مخبئها الذي ظلت مدفونة فيه لسنوات دون صور تمنحها الحياة. في حقيبة مركونة في السقيفة كانت تلك الإطارات محفوظة مع تماثيل خزفية صغيرة، وشمعدانات فضية وأكواب زجاجية ملونة، ملفوفين جميعاً بأوراق الجرائد. معظم هذه الأشياء كانت هدايا مقدمة من أصدقاء لي ولزوجي، وبعضها اشتريته في سنوات زواجي الأولى، وكانت حينها موزعة في أنحاء البيت، لكني لم ألبث أن جمعت كل ما كنت أزين به بيتي، ووضعته ضمن حقائب في السقيفة، ولعل المشهد الأكثر قسوة حينها كان المكتبة الخشبية التي أفرغتها من الكتب، التي لطالما منحني وجودها سكينة نادرة. وظل البيت هكذا حيادياً تجاه الحياة، دون هوية أو لون على مدى عشر سنوات كاملة.

وبعد أن باتت الإطارات نظيفة، أخرجت من درج الخزانة ألبومات الصور، وبحرص من يزرع وردة في أصيص رحت أضع صورة داخل كل إطار: صورة لي في المشفى بعينين دامعتين وصغيري بين ذراعي، صورة لابني بحر بعمر الثلاث سنوات في أرجوحة حديقة وعلى جانبيه أنا وأبوه، صورة لأمي وهي تقبله بشراهة على وجهه وهو يبدو ممتعضاً بشدة، وحده بصدرية زرقاء عند مدخل باب الروضة، وصورة أخيرة له بعمر الخامسة عشرة أقف قربه ممسكه يده، وأحاول عبثاً جعله ينظر إلى الكاميرا. وزعت الصور على

جدران الصالة، ووضعت أخرى على الطاولة التي تتوسط الغرفة، وبقلب منكمش فتحت باب غرفته الموصد منذ وفاته، وقمت بكنس الأرض ومسح الغبار، لم يكن ثمة الكثير من الأثاث، فقط سرير معدني وطاولة فارغة السطح وخزانة. تأملت قليلاً في محتويات الغرفة البائسة، وجرح قلبي أنها تشبه غرفة عجوز لا أحلام ولا حماقات لديه، لا يملك مطرباً مفضلاً يعلق صورته فوق سريره، ولا جهاز كمبيوتر على طاولته، لا كتب أو دفاتر أو أقلام، لا تذكارات من أصدقاء، ولا أقراص مدمجة تحوي موسيقاه المحببة. كانت غرفة شخص عاش دون ظل، وغادر دون أن يترك وراءه شيئاً يثير شهية التذكر.

خرجت أنا والمراسل إلى الشرفة، بينما المصور يوجه كاميرته نحونا، أشرت إلى سور الشرفة المعدني وقلت: كان يمضي أغلب الوقت هنا، يقفز ممسكاً بسور الشرفة، كانت تمر الساعات، وهو يقفز، ولا يتوقف إلا حين يجوع، أو حين أرغمه على الدخول إلى البيت، وأقفل باب الشرفة بالمفتاح، وغالباً ما يكون السبب أن أحد الجيران قد طرق باب بيتنا، شاكياً من أن صراخ ابني المتواصل يمنع أولاده من التركيز على دراستهم. صمت قليلاً، ثم تابعت: هنا عاش حياته معظم حياته القصيرة الوحيدة، وهنا كانت نهايته.

نظر إلي بأسف مصطنع، وقال: اشرحي لي ما الذي حدث في ذاك اليوم؟

obeikandl.com

أشار إلي بيده لندخل البيت مجدداً، قدته نحو المطبخ، وهمست بصوت مرتجف: كنت هنا، أقلي البطاطا التي يحبها، وفجأة التفت ورأيته يقف عند باب المطبخ وقميصه مضمخ بالدماء، كنت قد سمعت منذ دقائق صوت إطلاق رصاص كثيف، لكني لم أكترث إذ عرفت أنه موكب شهيد، وهذا بات مألوفاً في حينا وفي البلاد عموماً، لكن حين رأيت الدماء على صدر ولدي، استعدت مباشرة صوت إطلاق النار، وأدركت أن رصاصة طائشة قد استقرت في جسده، هرعت إليه لأسنده بين ذراعي، وجررته نحو الصالة، وعلى هذه الأريكة أغمض عينيه، ومات سريعاً وبهدوء، قبل وصول سيارة الإسعاف. نظرت إلى عيني المراسل اللتين تحدقان في الأريكة معدنية المساند، وقلت بأسى: عاش حياة غائبة عن المعنى، ومات ميتة مجردة من المعنى أيضاً، مجرد رصاصة طائشة، أطلقها أحمق أعطوه سلاحاً ليستخدمه على الجبهات، فتحول إلى آلة قتل عمياء منفلتة في الشوارع.

وبينما الكاميرا تلاحقنا، دخلنا غرفة ولدي، فتحت الخزانة الخشبية، ورحت أستعرض وإياه ملابس ابني، همست وقد لاحظت استغرابه من كون جميع الكنزات بذات اللون: المصاب باضطراب التوحد يصعب عليه التغيير، وبحر كان يحب كنز ة بيضاء يرتديها طيلة الوقت، ويرفض استبدالها، لذلك بت أشتري له كنزات مشابهة كي لا يضطرب حين يرتدي شيئاً مختلفاً. وقبل أن نغادر الغرفة، همست: قد تستغرب جفاف الغرفة وخلوها من الأغراض، وكذلك كان بيتي دائماً ليس فيه لوحة أو تحفة أو

حتى منفضة سجائر، لأن ابني كان يختطف أي شيء يراه أمامه، ويرميه من الشرفة. ابتسمت وقلت:

تعودت أن أخفي مفاتيحي وساعتي وأشيائي الشخصية في درج مقفل، وما كنت أنساه خارجه كان مصيره أن يرمى إلى الشارع أو في حديقة الجيران. كل هذه الصور التي تراها، علقتها على جدران البيت أمس. وأشرت إلى السرير المعدني وقلت: حين بلغ العاشرة من عمره قمت باستبدال الأثاث الخشبي بآخر معدني، لأنه كسر سريره الخشبي وهو يقفز فوقه.

أمسكت مغلفاً يحوي مجموعة كبيرة من الصور، وجلست على الأريكة قرب المراسل، أستعرض أمامه صور ابني في مراحل مختلفة من عمره، بدءاً من طفولته المبكرة التي كان خلالها طفلاً أليفاً ضحوكاً لا يهدأ، مروراً بالمرحلة الغريبة الصامتة حين ظهرت لديه أعراض اضطراب التوحد، في الخامسة من عمره، والتي يبدو جلياً في الصور التي تجمعني به أنه كان أقل تفاعلاً وعاطفة، وصولاً إلى صوره بين العاشرة و الخامسة عشرة من عمره، حيث بدت الأعراض أكثر وضوحاً وحدة، فهو لا ينظر إلى الكاميرا ولا إلي. وشرحت للمراسل كيف أن ابني الذي كان شعلة حماس وحيوية وفضول فقد فجأة اهتمامه بكل ما حوله، وبعد أن كان يومياً ينتظر على الشرفة عودة والده من عمله، وحين يراه قادماً، يهرع ليلاقيه على الدرج، بات زوجي يدخل البيت ويقترب منه منادياً إياه، لكنه لا يجيب، ولا يلتفت نحوه، ويتابع التحديق في شيء ما، علبة مناديل ورقية أو منفضة سجائر أو أي

شيء آخر، وبات يمضي أوقاتاً طويلة متربعاً على الأرض يهز جسده إلى أعلى وأسفل مئات المرات، وحين كنت أناديه لأحاول جعله يفعل شيئاً ما مختلفاً كان لا ينظر نحوي كما لو أنه لا يسمعني، وهنا اعتقدت أن ثمة مشكلة ما في أذنيه، لكن الفحص الطبي أثبت أنهما سليمتان، و بعد استشارات وفحوص عديدة اكتشفنا أنه مصاب باضطراب التوحد، وأنه سيمضي ما تبقى من حياته على هامش الحياة في عالم متخيل لا يمكن لأحد اقتحام أسواره.

في لحظة ما فتح مساعد المصور النافذة، ليلقي عقب سيجارته، فهبت نسمة هواء قوية تسببت بتطاير الصور التي كانت في حضني، انحنيت بسرعة لألتقطها وكذلك فعل المراسل، وبينما أرفع رأسي، علق شعري بالزر في أسفل قميصه، وحين حاول بحركة متسرعة أن يخلص شعري من الزر، وأمام دهشة الجميع سقط شعري المستعار على الأرض.

في أعينهم التي كانت تحملق بهلع في رأسي الأجرد، رأيت كم أصبحت امرأة محزنة ومثيرة للشفقة، وشعرت بدوري بالهلع والشفقة على هذا المخلوق البائس الذي أصبحته. في تلك اللحظة استيقظت أفروديت القديمة داخلي، تلك التي نامت منذ سنوات طويلة، وراحت فجأة تذرف دموعا أشد ملوحة من أي دمع قد يأتي به بكاء غادر.

ومن بين دموعي سمعتها تقول لهم بصوت واهن: أرجوكم غادروا.

obeikandl.com

الفصل الخامس

ليس ثمة ما هو أفضل من رواية لجعل الناس يفهمون أن الواقع مصنوع بطريقة رديئة.

ماريو يوسا

- **هل أنا قبيح جداً يا جميلة؟**
- **نعم أيها الوحش.**
- **وبليد جداً؟**
- **لا، لست بليداً أيها الوحش.**
- **هل في وسعك أن تحبيني يا جميلة؟**
- **نعم إني أحبك، لأنك لطيف جداً.**
- **هل تتزوجيني يا جميلة؟**
- **لا أيها الوحش!**

كنت قد حشرت جسدي داخل قن الدجاج، وأخرجت كنزي الصغير المخبئ تحت ثيابي، ورحت أقرأ بولع قصتي الأولى، التي منحتني أولى زياراتي إلى

obeikandl.com

عالم الحكايات الخرافية الحافل بكل ما لا يعثر عليه على هذه الأرض، ذلك العالم الذي كل شيء فيه ممكن و قابل للحدوث.

كنت أنتقل بلهفة من سطر لآخر، وحين علمت أن جميلة قد كسرت قلب الوحش رغم رقة قلبه وطيبته معها، رحت أبكي، وأنا أتخيل نفسي مكانه، وقد حطمت جميلة قلبي لأني أملك وجهاً قبيحاً.

لكن حزني سرعان ما تحول إلى ابتسامة دهشة ملأت وجهي المبتل بالدموع، حين انحنت جميلة فوق جسد الوحش، الذي كان يحتضر بعد أن فتك بقلبه الحب، وأخذت تصيح: لا تمت أرجوك، سأتزوجك!

وابتسامتي هذه استحالت ضحكة كبيرة، حين تحول الوحش القبيح فجأة إلى أمير فاتن!

يا لهذا العالم المدهش، والذي لا يمكن التنبؤ بما قد يحدث فيه!

كنت أشعر بأن نجوماً فضية قد تسللت إلى جوفي، وراحت تلمع داخلي، وحين أكملت قراءة الصفحة الأخيرة، انقبض صدري إذ خشيت أن تغادرني النجوم التي تدغدغ صدري، وأفقد الضوء الذي أشعر به يشع من مسام جسدي.

حين أعدت القصة إلى الأستاذ سعد، ابتسم وسألني: أحببت القصة؟

صحت ببهجة: كثيراً، لكني لم أفهم كيف أحبت جميلة الوحش رغم قبحه ومخالبه المفزعة؟

أطلق ضحكته اللطيفة، وقال: إنها الألفة يا أفروديت.

obeikandl.com

ثم ردد بينما يبحث لي عن قصة جديدة في أحد رفوف المكتبة: (حذار من الألفة فقد جعلت الجميلة تقع في غرام الوحش)!

نظرت إليه بحياء، وهمست: ماذا تعني الألفة؟

ابتسم بينما يقول: أن ننظر بقلوبنا ونرى ما لا يراه من يكتفون بالنظر بأعينهم.

لم أفهم تفسيره، الذي كان بدوره يحتاج شرحاً، ولا أتصور أنه كان يوجه الكلام إلي، لأنه قال تلك الكلمات المبهمة كما لو كان يقولها لنفسه، إلا أني احتفظت بها في عقلي لأفكر فيها لاحقاً، ورحت أراقبه بولع بينما يقف أمام المكتبة ينتقي لي القصة الثانية.

كان ثمة رف تصطف عليه سلسلة قصص «الليدي بيرد» ذات الأغلفة المصنوعة من الورق المقوى، والمرسوم عليها لوحات غاية في البهاء، غالباً ما تتضمن أميرات باذخات الجمال يرتدين أثواباً منفوخة ساحرة، وعلى مدى شهر كامل كان الأستاذ سعد يمد يده إلى ذلك الرف، ويسحب قصة عشوائية يعطيني إياها بينما يذكرني بلطف بأن أحافظ على غلافها وأوراقها نظيفة ودون ثنيات، وكنت أهز رأسي بإذعان مسالم، وأنا أرتعش من الفرح.

وهكذا قرأت السلسلة كاملة: «الأميرة النائمة»، «سندريلا»، «الأميرة والأقزام السبعة»، «الأميرة والضفدع»، «الذئب والجديان السبعة»، « ليلى والذئب»، «الأميرة وحبة الفول»، «رابونزل»... و قصص كثيرة أخرى جعلت العالم في عيني أكثر زخرفة ورحابة.

لكن وبينما أحلق في عوالم تلك الحكايات، بدأت ألحظ أنه في كل تلك القصص كان ثمة أميروسيم يظهر فجأة لينقذ الفتاة الجميلة، بطرق عديدة منها تطابق قدمها مع فردة حذاء ضائعة، أو تقبيلها وإعادتها إلى الحياة مجدداً، أو وضع حبة فول تحت عشرات الأغطية في سريرها. وهذا الأمير قد يكون ضفدعاً أو وحشاً أو أي كائن غير متوقع، وتنتهي جميع الحكايات النهاية السعيدة ذاتها : بساط أحمر طويل مذهب الأطراف، تعبره الأميرة برفقة الأمير بينما تنهال الأزهار عليهما.

كان قدر جميع الفتيات في تلك القصص أن يكن أميرات، ويكافئن على كونهن طيبات وحانيات وجميلات. ورغم انبهاري بذلك المصير المذهل، إلا أنني كنت أفكر بامتعاض بالنهايات الممكنة لحكاية فتاة ليست شقراء الشعر وخصرها ليس نحيلاً ولا تملك أنفاً دقيقاً وعينين زرقاوين.

وكنت أتساءل بغضب: لماذا لم تأخذ تلك الحكايات بعين الاعتبار احتمال أن ينقذ الأمير فتاة تكون هي ضفدعاً قبيحاً أو وحشاً ذا مخالب؟

ولماذا الشريرات في تلك الحكايات يكن دوماً قبيحات؟ أو لعل العكس هو الصحيح: القبيحات يكن دائماً شريرات، ذوات أنوف معقوفة وأعين جاحظة وأقدام مفلطحة كبيرة!

اكتشافي هذه الفخاخ في قصص الدهشة تلك حرض داخلي نيران ثورتي الأولى على تلك الحكايات، التي تفترض أن العالم بكل معجزاته وأعاجيبه وجنياته الطيبات مسخر لخدمة الجميلات فحسب، ولا أمل

لغيرهن في النهايات السعيدة، إذ لن تناسب أقدامهن الكبيرة حذاء السندريلات المشتهى، ولن تساعدهن الدهون المكدسة في أجسادهن ليشعرن بوجود حبة فول قاسية في سرير يختبر أصولهن الملكية!

كان اكتشافي الأكثر مرارة هو أن تلك الحكايات قد قامت بإقصائي جانباً، قاضية على احتمال عثوري على أمير منقذ، ما جعلني أشعر بحقد مباغت تجاهها، لكني لم أكن أملك مفردات كافية لشرح ما أفكر به، فاكتفيت بأن سألت الأستاذ سعد سؤالاً بسيطاً: لماذا تحتاج الفتيات إلى أمير ينقذهن؟

ابتسم، وقد رفع حاجبيه بدهشة، وقال: برافو أفروديت! سؤالك جميل، اسمعيني، ثمة أميرات حقيقيات، لا يحتجن أميراً ينقذهن، هن ذكيات كفاية ليتولين مهمة إنقاذهن بأنفسهن.

هتفت بسعادة: كيف؟

- ستعرفين الإجابة وحدك يا أفروديت، صبراً جميلاً أيتها الصغيرة!

كان ذلك هو مفترق الطرق الذي ودعت عنده حكايات الجنيات والأميرات والحفلات الراقصة، ودخلت عالم الواقع بكل بؤسه وعجائبه، إذ عدت في ذلك اليوم إلى البيت، وأنا أحمل كتاباً سميكاً لا يشبه بحال من الأحوال قصص« الليدي بيرد» النحيلة، وعلاوة على ضخامته فهو يحمل عنواناً غير جذاب: «البؤساء».

obeikandi.com

كنت أتصفح الكتاب بفضول بينما أسير قرب فتحي المتواطئ معي بعدم إخبار أمي عن تلك الكتب، لأن أمي لن تقبل، بأي حال من الأحوال، أن يمتلأ دماغي، المخصص بالكامل لكتب المدرسة، بخربشات غير ضرورية، علاو ة على أن كلمة هواية أو مصطلح (وقت الفراغ) لم يكن موجوداً في قاموس أمي فقير المفردات، فهي تعتبر عدم وجود وظائف أو دروس لدي هو إعلان ضمني عن وجوب مساعدتها في توزيع الحليب والجبنة على الزبائن، وتنظيف قن الدجاج، والعناية بعزيزة المغرورة.

وهذه التسوية بيني وبين فتحي تمت بناء على اتفاق متبادل بعدم إخبار أمي بخيبة الأمل، التي يتسبب بها للأستاذ سعد أثناء الدروس، مقابل ألا يخبرها هو أني أمضي الوقت في قراءة كتب لا ترد محتوياتها في الامتحانات المدرسية.

الكتاب الضخم الذي لم أتصور أني سأتمكن من إنهائه أبداً، ملأني بالتساؤلات حول الخطأ والصواب، كنت متعاطفة مع جان فالجان، السجين الذي أطلق سراحه بعد تسع عشرة سنة لأنه سرق قطعة خبز، وبات ينام على قارعة الطريق لأن أصحاب الفنادق في مدينته رفضوا استقباله لأنه مجرم سابق، لكني لم أستطع التعاطف معه بعد أن أشفق عليه أسقف المدينة، وانتشله من الطريق ليستضيفه في بيته، وعوضاً عن أن يملأ ذلك الموقف فالجان بالامتنان، قام بسرقة أوان فضية من بيت الأسقف وهرب، وعدم تعاطفي مع فالجان الجاحد تحول إلى غضب حين

قبضت عليه الشرطة، وادعى الأسقف بأنه هو من أهدى الفضيات لجان فالجان، بل وقدم له شمعدانين فضيين، كان قد نسي أن يسرقهما في الليلة الفائتة!

وبعد مغادرة الشرطة قال الأسقف لجان فالجان بأن عليه أن يستخدم المال الذي تعادله هذه الفضيات ليجعل من نفسه رجلاً صالحاً.

لاحقاً حين سألت الأستاذ سعد لماذا فعل الأسقف ذلك، رغم أن جان فالجان قد خان الأمانة وسرق، قال لي بأن دافعه كان إيقاظ الإنسان الطيب داخل فالجان، الذي اعتاد على أن يتبادل مع الآخرين سوء المعاملة والحقد، لكن أحداً لم يقدم له يوماً العطف أو الحب. لهذا أراد الأسقف أن يختبر قوة التسامح، وكيف يمكن أن تغير هوية الانسان، وفعلاً هذا ما حدث، لقد تغيرت هويته من جان فالجان السارق إلى مادلين عمدة المدينة الشهم، الذي يدافع عن المظلومين، وكرس حياته لتربية كوزيت اليتيمة.

كنت أفكر بكلام الأستاذ سعد، وأستعيد في ذهني ما فعله كلبي زعتر بخلدون، متنمر المدرسة. زعتر الذي كان كلباً سلوقياً نحيلاً، التقيته ذات يوم بينما كنت عائدة إلى البيت من منزل جارتنا أم محمد، التي كانت أمي قد أرسلتني إلى بيتها لأساعدها في توزيع حصص البرغل مع لحم الخروف على بيوت القرية، كان ذلك نذراً سنوياً تعهدت أم محمد بتأديته حتى آخر يوم في عمرها في حال استجاب الله لدعائها، وأنجبت صبياً بعد بنات سبعة كسرن ظهرها، وخيبن أمل زوجها. وبمجيء محمد باتت تفي بنذرها هذا بذبح خروف كل عام

قرب قبر أحد الأولياء الصالحين ، ثم تسلق لحمه وتوزعه مع البرغل على أهالي القرية.

المهم في تلك الحكاية أني كنت أمشي في الطريق نحو بيتنا حاملة وعاء كبيراً مليئاً بالبرغل وقطع لحم الخروف حين التقيت زعتر. حينها لم يكن قد أصبح اسمه زعتر بعد، لكنه كان يملك جلداً بني اللون تملأه بقع فاتحة تشبه السمسم، وبينما أتأمله فكرت ضاحكة أن بعض الزيت كفيل بتحويل هذا الكلب إلى عروسة زيت وزعتر. كان زعتر جائعاً، هكذا قالت لي عيناه المتوسلتان، وكنت قد أدركت أنه تبعني من منزل أم محمد، التي كنت قد رأيتها وهي تقذفه بحجر ليبتعد عن بيتها، الذي تفوح منه رائحة اللحم المسلوق.

كنت أعلم أن طعام النذر هذا محرم عليه، فمن عادات أهالي القرى أنهم لا يطعمون من نذورهم إلا ذوي السمعة الحسنة والخلق الطيب، وحتماً لا يمكن اعتبار الكلاب من ضمن المؤهلين لتناول لحم الخروف الذي قام الشيخ بقراءة آيات قرآنية على السكين التي ذبحته، بل أني أذكر أن امرأة مطلقة تتناولها الألسن في القرية منذ طلاقها، جاءت يوماً لتقدم المساعدة لأم محمد في طبخ نذرها، لكن أم محمد ادعت عدم الحاجة إلى مساعدة، وهمست في أذن أمي أنها تخاف من عدم قبول النذر بسبب تدخل يد تلك المرأة، في حال صدقت الشائعات التي تتناول أخلاقها. ومع عدم فهمي للسبب الذي يجعل ذبح خروف مسكين وسكب دمائه على الأرض، طريقة لشكر الله، فقد وجدت أن لا سبب مقنع يمنع أن يكون لهذا الكلب المسالم حق في ألا يجوع،

ولهذا، وبعد أن تأكدت من أن لا أحد يراني، رميت لزعتر قطعة لحم، ورحت أتأمله بحنو بينما يأكلها ويتلمظ، ولم يلبث أن راح يتمسح بساقي، بينما يتدلى لسانه ببهجة واضحة.

وكيف لا يبتهج؟ وقد حصل للتو على قطعة فاخرة من لحم الخروف التي هي حلم أي كلب سلوقي، لا يتجاوز طموحه الواقعي الحصول على عظمة!

كانت تلك بداية صداقتي الطويلة بزعتر الذي تبعني إلى البيت، وصار منذ ذلك اليوم يجلس أمام باب الدار نابحاً في وجه العابرين في إعلان متعال عن كونه المسؤول عن حراسة المكان، في شكل من أشكال رد الجميل الشائعة لدى معشر الكلاب. وقد أثلج صدري أن نباح زعتر لم يزعج أمي، التي يبدو أن وجوده أشعرها بالطمأنينة على دجاجاتنا، التي كنا قد فقدنا واحدة منها منذ أسابيع، ولم نعلم أبداً كيف اختفت أو من سرقها.

وحين كنا نذهب أنا وفتحي إلى منزل الأستاذ سعد كان زعتر يرافقنا حتى الباب، ثم يجلس على العتبة حتى انتهاء الدرس، وأحياناً يضع له الأستاذ صحناً فيه بقايا طعام، فيلتهم محتوياته، ويغفو بسلام إلى أن يسمع صوت مزلاج الباب، فيقفز ويبدأ بالنباح.

وفي أحد الأيام وبينما كنا في طريق العودة إلى البيت، ولأني كنت أقلب صفحات قصة «الأميرة النائمة»، لم ألحظ أن خلدون قد بات أمامي إلا بعد

فوات الأوان، إذ سرعان ما خطف بيده الغليظة القصة من يدي، وراح يقلب صفحاتها وهو يصيح: ما هذا يا خنفساء؟

صرخت بهلع، وأنا أحملق في القصة بين يديه: أرجوك أعدها إلي!

رفعها عالياً كي لا تبلغها يداي الممدودتان نحوها، وراح يتهجى بصعوبة: ال أم ي ر ة ال ن ا ئ م ة!

ثم صاح بتهكم: أميرة ها، وما علاقة فتاة مثلك بالأميرات؟

كان زعترينبح، بينما دموعي تنهمر بغزارة، وأنا أردد بأسى: أرجوك أعدها إلي!

وخلال لحظات هجم زعتر على خلدون، وأطبق بأسنانه على ساقه البدينة، فأطلق صرخة مدوية، وأفلت الكتاب من يده.

التقطت الكتاب عن الأرض، ورحت أركض، وفتحي الذي كان يبكي بدوره راح يركض ورائي، وسرعان ما لحق بنا زعتر.

التفت إليه، وتبادلت وإياه نظرات الامتنان.

كنت أستعيد تفاصيل ذلك اليوم بينما أستمع إلى حديث الأستاذ سعد عن مخاطبة الطيبة داخل الإنسان الشرير، والتي قد تكون كفيلة برأيه بتغيير هويته إلى الأبد. ورحت أفكر بأن زعتر قد لقن خلدون درساً في السلوك الحسن بطريقة مختلفة، ويبدو أنه كان درساً جيداً.

فأنا لم أستطع أن أقتنع بجدوى مواجهة الشر بالطيبة، والاعتماد على مبدأ أن التسامح والحب قادران على تغيير هوية إنسان يحترف التنمر والشر، لكن الألم الذي يخلفه العقاب قد يتمكن من ذلك، بدليل أن خلدون بات يتحاشاني كما لو كنت طاعوناً مميتاً، و سواء كان قد تعلم درساً أم لا، فقد تحررت من تنمره إلى الأبد.

obeikandl.com

الفصل السادس

حساسيتنا مثلومة، هناك عالم يدفع إلى الجنون ولا نجن.

ممدوح عدوان

كنت أتأمل وجوه الجالسين حول الطاولة البيضوية التي اتخذنا أماكننا حولها منذ حوالي نصف ساعة. كانت المرأتان الجالستان في الجهة المقابلة تحدقان طيلة الوقت في جواليهما لتفادي أي حديث محتمل. بينما أخذ الرجل الجالس قربي يقلب في ألبوم صور يضعه أمامه على الطاولة، ويتأمل كل صورة على حده كما لو كان يراها للمرة الأولى. اختلست نظرة خاطفة إلى إحدى الصور، وانقبض صدري لرؤية بنت صغيرة نحيلة، تضحك ضحكة كبيرة تكشف عن سن أمامي مفقود، وتحتضن ساق رجل حليق الذقن يضحك ملء شدقيه، خمنت أنه هو صاحب الصورة، وإن كان أكثر نحولاً مما كان عليه وقت التقاطها، علاوة على أن لحيته غير المشذبة تخبر أنه يعيش موسم حداد مفتوح. كنت أرمق بطرف عيني المرأتين، اللتين كانتا متناقضتين إلى حد يبدو معه جلوسهما في مكان واحد أمراً مخالفاً للطبيعة، كانت إحداهما ترتدي جلباباً أسود، وتغطي رأسها بغطاء أبيض اللون مزموم

عند ذقنها، ونظرة متأملة في وجهها الخالي من المساحيق تكشف أنها مازالت في العشرينيات من عمرها، لكن ملابسها وحجابها يمنحونها مظهراً كهلاً يتنافر مع عينيها الطفلتين اللتين تطلان بحياء من تحت حاجبين أسودين كثيفين. وعلى النقيض منها كانت المرأة الأخرى تصلح نموذجاً للمرأة العصرية، التي نراها على أغلفة المجلات، بقصة شعرها القصيرة، التي يبدو من تموجاته الأنيقة أنها أمضت وقتاً لدى مصفف الشعر قبل أن تأتي إلى الاستوديو. كانت ترتدي قميصاً أبيض بلا أكمام وبنطال جينز، ورغم أنها لا تضع مساحيق تجميل، إلا أنها تبدو ممن يبذلن جهوداً كبيرة في العناية بأنفسهن، بآثار التجميل الواضحة على أنفها الدقيق وشفتيها المنفوختين، ووجهها الخالي من أية خطوط تدل على عمرها. وبينما أراقب تفاصيلها الأنثوية ضبطت نفسي أنظر بعين الحسد إلى تلك المرأة، التي تستطيع في قمة بؤسها أن تبدو جميلة. وتساءلت كيف أبدو في عيني من يراقبني في هذه اللحظة؟ كنت مجللة بالسواد من رأسي إلى أخمص قدمي، وأزن بضعة كيلوغرامات، أضع شعراً قصيراً مستعاراً، يسهل اكتشاف أنه ليس طبيعياً، ووجهي شاحب كمن صحا فجأة من الموت.

لكني سرعان ما تجاوزت تلك الهواجس الطارئة، واستعدت سبب تواجدنا هنا. فعلى الرغم من الفوارق في هيئاتنا، وملامح وجوهنا، إلا أننا نشترك بكوننا جميعاً نحمل قلباً نازفاً داخل صدرونا. نحن الأربعة قد انحرفت أقدارنا عن مسارها بسبب رصاصة طائشة، أطلقها شخص

مجهول، قد يكون في هذه اللحظة يحضر مباراة كرة قدم مع رفاقه في المقهى، أو يلتقط صورة بهاتفه المحمول مع حبيبته أو زوجته، ولعله يحمل طفله بين ذراعيه ملاعباً إياه دون قلق أو هواجس، متابعاً حياته دون أن يعلم أنه سلب شخصاً آخر حياته، وأنه بات قاتلاً على غفلة منه، هو مازال حراً من هويته كقاتل، لأنه حين أطلق تلك الرصاصة، لم يلتفت إلى الخلف.

بعد طول انتظار دخلت مقدمة البرنامج الاستديو، يتبعها عدة أشخاص، ألقت علينا نظرة مبتسمة، وسألتنا: جاهزون؟

وبينما كان أحد مساعديها يثبت لاقطاً صوتياً صغيراً على ياقة ثوبها النبيذي، كنا نحملق جميعاً بشعرها الأحمر اللامع، وطبقات المكياج الكثيفة التي تعلو وجهها، ومظهرها المبهرج الذي يتنافر مع هيئاتنا المتجهمة. وبمقارنة هيئتها البراقة بمشهد البؤس الذي نمثله، كانت تجسد طاووساً ملوناً جمعته صدف غير منطقية بسرب غربان كئيبة.

سرعان ما علا صوت الموسيقا معلنة بداية الحلقة، التي افتتحتها المذيعة بمقدمة قصيرة عن الرصاص الطائش، الذي وصفته بالظاهرة الخطيرة بعد أن صار عدد ضحاياه يشكل رقماً لا يستهان به، مشيرة بشكل خاص إلى تسجيل حالات موت كثيرة برصاص طاش في سورية، التي تعيش تحت نيران الحرب منذ سنوات. وبعد عرض تقرير يتضمن قصصنا نحن الأربعة، استهلت المذيعة الحديث مع المرأة ذات الشعر الذهبي، والتي عرّفت عنها بأنها فنانة تشكيلية لبنانية، وسرعان ما تبدلت ملامحها الواثقة

لتصبح أكثر هشاشة حين راحت تحكي عن ابنها، الذي كان يعاني إعاقة سمعية، وكان يسرق فرشاتها وعصارات ألوانها، ويختبئ لساعات تحت سريره يرسم. وحين أدركت شغفه بالرسم حولت إحدى جدران غرفته إلى مرسم له، كان يقضي الساعات وهو يرسم عليه دون ملل، ليمنحه عالم الألوان حواس جديدة خففت عنه وطأة الوحدة المفروضة عليه، في غياب من يرغب باللعب معه من الأولاد الآخرين. وحين سألتها المذيعة عن يوم الحادث، همست: كان قد وضع مرسمه في فيء شجرة اللوز في حديقة منزلنا في القرية، حيث نمضي الإجازة الصيفية، وفي لحظة ما مر موكب تشييع، جميع من في الطريق احتموا داخل البيوت من الرصاص، الذي كانت يتساقط بين الأقدام، ماعدا ابني الذي كان في عالمه الخاص الهادئ والمسالم حين استقرت رصاصة في ظهره.

بعد إن أنهت الفنانة حكايتها بالدموع، كان قد جاء دور المرأة ذات الحجاب الأبيض، والذي صدق تخميني صغر سنها، إذ تبين أنها لم تكمل الواحد والعشرين من عمرها بعد، ترملت العام الفائت حين كانت وزوجها في عرس ابنة أخيه، وكان قد جلب معه مسدسه ليعبر عن بهجته بإطلاق عدة عيارات نارية كما هو دارج في حفلات الأعراس في قريتهم. وفي لحظة نحس وضع المسدس على الطاولة، وراح يصفق للعروس التي كانت تراقص عريسها، فغافله ابنه الذي لا يتجاوز الخامسة من عمره، واختطف المسدس، وراح يلهو به، وبضغطة بسيطة على الزناد خرجت رصاصة

استقرت في صدر أبيه، وقتلته على الفور. همست المرأة بصوت مخنوق بينما تسيل الدموع على خديها: لم أخسر زوجي فقط، بل بات ابني قاتلاً. أنا أمضي الأيام منذ ترملي، أفكر في مستقبل طفلي البريء، وتكاد تقتلني الهواجس بينما أسأل نفسي: هل سيسامح ابني نفسه حين يكبر، ويعرف أنه تسبب بقتل أبيه؟ ومن هو المذنب؟ طفلي البريء الذي أراد اللعب؟ أم والده الذي جر الموت والقهر إلى حياتنا بسبب مسدسه الذي كان لا يفارقه؟

كان الاستوديو قد بات خانقاً، والبؤس الذي نثر في الهواء كان أكثر مما يحتمله هكذا مكان ضيق، وكنت أشعر بأني بدأت أفقد تماسكي بينما أمسح دموعي أسوة بباقي الموجودين، عندما علا صوت الرجل صاحب اللحية الطويلة يتحدث عن ابنته، التي كانت قد نجحت للتو في امتحانات الشهادة الإعدادية، حين قتلتها رصاصة طائشة وهي واقفة على سطح بيت جدتها، تتفرج على الاحتفالات بفوز الرئيس السوري في الانتخابات، وتابع بصوت مبلل بالدموع:

لو أن ابنتي قتلت على أيدي التكفيريين، الذين ذبحوا الآلاف في بلادي، لخفف ذلك بعضاً من لوعة قلبي، ولقلت إنها راحت شهيدة هذه الحرب الوحشية، لكن ابنتي قتلت برصاص أحمق، أراد أن يعبر عن الفرح، فاغتال بهمجيته الفرح إلى الأبد.

ثم راح يشرح، والدموع تنهال من عينيه، كيف أن ابنته لم تحظ يوماً بسرير تنام عليه، لأن بيتهم يحوي غرفة نوم واحدة بسرير صغير واحد بالكاد يتسع له ولزوجته، لذا ظلت حتى الحادية عشرة من عمرها تنام على فراش اسفنجي على بلاط الغرفة. وهو كان قد وعدها بأن يبني لها غرفة في الحديقة حين تنال الشهادة الإعدادية، وراح يجمع الليرة فوق الليرة ليفي بوعده، لكن صغيرته قتلت قبل أن يحقق لها حلمها البسيط.

حين جاء دوري، كنت منهكة بعد أن تشربت بؤس وفجيعة الذين تحدثوا قبلي، وشعرت بأني لا أملك قوة كافية لأفتح فمي، فكيف بفتح قلبي، لكني تحاملت على نفسي، وحاولت أن أشرح عن هاجسي الذي أشترك فيه مع أي أم أو أب رزق بطفل ذي احتياج خاص: ماذا سيحل بابني بعد موتي؟ السؤال الذي لطالما سألته لنفسي، واكتفيت بانقباض صدري رداً دون بحث عن إجابة، لكن العثور على إجابة تحول إلى ضرورة ملحة بعد اكتشافي أني مصابة بسرطان في الدم، وأني سأموت قريباً تاركة طفلي التوحدي خلفي.

- كنت أتساءل طيلة الوقت إن كان زوجي سيحتمل كل تلك الضغوط التي كنت أحتملها، و هل سيستطيع البقاء في البيت طوال اليوم برفقته؟ هل سيتمكن من استيعاب نوبات غضبه وصراخه الدائم؟ هل سيتخلى عن عمله وأصدقائه وهواياته كما فعلت ليبقى ملازماً له؟ وماذا لو مات زوجي أيضاً بعد موتي؟ ماذا سيحل بطفلي الذي لا يملك القدرة على أن يعبر عما يريد، أو عما يؤلمه إن شعر بوجع أو وهن؟ لكني يوم رأيت ابني أمامي مضرجاً

بدمائه، علمت أن السماء قد اختارت المزيد من الألم لي، والسلام لطفلي الذي لا يستحق الألم.

فكان قدري أن يموت ابني قبلي، كي لا يكون شاهداً على السرطان وهو ينهش جسدي، ويغتال وجودي الذي كان مكرساً له طيلة عمري.

صمت قليلاً ثم نظرت إلى الكاميرا عبر ستارة من دموع، وهمست بصوت متهدج: ليس هناك من موقف أكثر قسوة من أن يدفن الآباء أبنائهم، لكني أوجه رسالة إلى من قتل ابني، والذي قد يكون أي شخص أطلق يوماً رصاصاً في موكب تشييع أو احتفال، وأقول له: أنا أسامحك، لكن أرجوك توقف عن القتل، توقف عن نثر الموت حيث تمر، توقف عن اللامبالاة بالحياة التي تعبر قربك.

openkandl.com

الفصل السابع

كلما وقعنا على إحدى تلك الكلمات الصحيحة جداً يصبح التأثير الناجم عنها بدنياً إضافة لكونه روحياً وسريعاً كالكهرباء.

مارك توين

كان شيء ما خارق للعادة قد طرأ على حياتي، شيء يشبه المعجزات التي تتحدث عنها الأساطير، إلا أنها لا تحدث أبداً خارجها، فلا ننال نحن البشر الفانون إلا بعضاً من رذاذها السحري. لكن ما حدث لي كان شبيهاً بوجود جناحين هائلين لطائر أسطوري باتا فجأة يظللاني أينما كنت، ويجعلاني وارفة وفائقة العذوبة كما شجرة لوز في ربيعها، وصار ظلي أكثر رحابة ويتسع لدهشات كثيرة.

بدأ ذلك حين اكتشفت أني بت أملك مفردات كثيرة فريدة من نوعها، تترك وقعاً سحرياً على الأذن حين أتلفظ بها، وتجعل من يسمعني يفتح عينيه بدهشة، وأكاد أجزم بأنها تمسح على قلبه برقة تاركة وراءها مشاعر خفيفة الوزن شبيهة بما تخلفه أفعال الحب.

كنت قد خصصت دفتراً أكتب فيه كل العبارات والمفردات ذات الوقع الموسيقي، التي كنت أعثر عليها في الروايات التي أستعيرها من الأستاذ سعد.

obeikandl.com

كنت أتأمل حروفها، وأتلذذ بترديدها مرات عديدة، وفي كل مرة يرتعش قلبي بينما أستمع لوقعها في أذني. ورغم أن غالبية تلك الكلمات نادرة الاستخدام في الحياة اليومية، ويصعب إن لم يكن مستحيلاً العثور عليها في قاموس مفردات أي شخص عادي، إلا أنها في الوقت ذاته حميمية وغير مبتذلة ومألوفة بطريقة غير مفهومة. وأستطيع بثقة مطلقة أن أقول أني اكتشفت حبلاً سرياً يربطني بتلك الكلمات، وأن اكتشافي هذا جعلني أغادر المنفى، الذي ولدت فيه، وكان مفترضاً أن أحيا فيه إلى الأبد.

كنت أكتب قرب كل كلمة مرادفها المتعارف عليه، والذي يستخدمه عامة الناس في الحياة اليومية، وأتعهد أمام نفسي بعدم لفظ الكلمة القديمة مجدداً، والالتزام بالكلمة البهية الجديدة، وبحرص المعماري رحت أعد دعائم مملكتي التي قوامها كلمات سحرية يصعب نسيانها.

وعلى سبيل المثال، استبدلت كلمة مهذب بكلمة فارس، وكلمة كريم بذي نبالة، وصادق بنزيه، حسن الخلق بمعصوم عن الخطأ، و جميل بباذخ الجمال!

وكان قد بدأ يتكشف أمامي يوماً تلو يوم أن استخدام الكلمات المناسبة هو بمثابة امتلاك عصا سحرية قادرة بلمسة منها أن تحول أحداث الحياة البسيطة والعادية، إلى أحداث استثنائية لا تنسى، وبالتالي يكون امتلاك ذخيرة من الكلمات القوية المفعمة بالعاطفة والشغف والحرارة هو بمثابه تعويذة سحرية لعيش الحياة الحلم، التي يتوق إليها الجنس البشري. وهكذا

لن يكون المهم هو ما يحدث فعلاً، وإنما القصة التي ننسجها عما حدث، وذرات الغبار السحري التي ننثرها عليها حتى تصير جاهزة لتروى.

وبناء على ذلك يصبح السير برفقة فتحي وقت المغيب في طرقات القرية، التي تفوح برائحة روث الأبقار وتتوزع النفايات على جانبيها: نزهة في قارب وردي اللون في نهر عذب غير مرئي إلا لمن ينظر بقلبه أو يتقن الزقزقة. و عواء زعتر، الذي يصم الآذان وهدفه الترحيب بي كلما رآني، هو غناء الحوريات الذي يجعل البحارة يغيرون وجهة سفنهم نحو جزيرتهن المسحورة. وبالمفهوم ذاته يتحول زعيق أمي، الذي يطالبني بتحريك قدمي الكسولتين لمساعدتها في أشغال البيت التي لا تنتهي، هو صوت المزمار الذي يسحر الأطفال ويجعلهم يتبعون العازف أينما ذهب.

وبعد فترة من الزمن تجاوزت السطو على مفردات كتب الأستاذ سعد وحشوها في قاموسي السحري، إلى السطو على تعابير وجهه الساحرة، والتي كانت تجعل قلبي يدق بشدة كلما تسنت لي الفرصة لمراقبتها. كنت طيلة فترة تواجدي في مكتبه أراقب تعابير وجهه حين يعبس وحين يضحك أو يغضب ويتهكم، وأحفظ الحركات التي يقوم بها بعينيه وحاجبيه وشفتيه، والتي تختص كل منها بانفعالات محددة، وحين أعود إلى البيت أمضي ساعات في محاكاتها أمام المرآة. وأشهق حين أشعر بأني أستطيع أن أشبه الأستاذ بسرقة تعابير وجهه، كتلك الحركة اللطيفة حين يرفع حاجباً واحداً كلما استغرب أمراً، والتي غالباً ما يقوم بها حين يكون فتحي قد أثبت له أن مشكلته تتجاوز

صعوبات التعلم بأطوار، أو ضحكته الخافتة، التي بالكاد تسمع وترافقها نظرة جانبية إلى شيء ما غير محدد، حين أسأله عن معنى كلمة أو مصطلح قرأته، ويعجز عن إيصال المعنى إلي، وهناك أيضاً تلك الحركة حين يشعر بالتعب، فيخلع نظارته، ويرجع رأسه إلى الخلف، ويحدق في السقف.

ومن كثرة ما قلدت تعابير وجهه وانفعالاته، كنت أستطيع أن أجزم بأننا سنشيخ، وقد بتنا نملك ذات الخطوط التعبيرية على وجهينا.

وسرعان ما بت أستخدم مفرداتي السحرية الجديدة في كتابة مواضيع التعبير، التي تجعل أستاذ اللغة العربية يفتح عينيه على اتساعهما كلما قرأها، ونظراً لمعرفته بأن أمي الفلاحة بالكاد تفك الخط، فقد كان واثقاً من أن لا وجود لمن يكتب لي تلك المواضيع الفخمة وغير المتوقعة من فتاة في الرابعة عشرة من عمرها. وبالتالي بات يعتبرني أيقونة الصف، وصار يطلب مني أن أقرأ الموضوع أمام الطلاب، وهذا مالم يكن يطلبه من أحد، فيصفقون لي جميعاً حين أنتهي، بمن فيهم خلدون، الذي لم يكن يتجرأ على عدم التصفيق رغم امتعاضه الواضح من نجوميتي المباغتة.

ومن باب الغيرة أو الشعور بالعجز باتت رفيقاتي يرجونني أن أساعدهن في كتابة مواضيعهن، ورغم أني كنت حريصة على ألا أمنح أياً منهن فرصة التحول إلى نجمة، إلا أني كنت أعطيهن تعابير ومفردات تكفي كي يبتسم لهن الأستاذ، لكن دون أن تصيبه الدهشة كما يفعل أمام مواضيعي. وبعد أن باتت جميع رفيقاتي يطلبن خدماتي، قررت أن أستفيد من تلك الشعبية،

وأطلب منهن بدوري خدمات مقابل كتابة مواضيعهن، فصرن يساعدنني في توزيع الحليب على البيوت، وأحياناً يقمن بتنظيف قن الدجاج بالنيابة عني بينما أجلس عند بوابته أكتب وهن يرمقنني بامتنان. ولاحقاً صار بعضهن يحضرن لي ملء قبضة من قباقيب السكر الملونة، أو القضامه السكرية وأحياناً فستقاً محمصاً، ولقاء ذلك كنت أعفيهن من المهام المرهقة آنفة الذكر.

وسرعان ما بدأت طلبات من نوع مختلف تنهال علي، من بنات يطلبن مني كتابة رسائل حب حارقة لصبيان في الصف، وكانت تلك الرسائل تتطلب مني علاوة على السرية جهداً مضاعفاً، وبما أن بعض تلك الفتيات العاشقات كن من عائلات ميسورة، فقد فضلن عوضاً عن تقديم الحلوى أو الخدمات إعطائي عشرين ليرة مقابل كل رسالة، أضعها في مخبئي السري في قن الدجاج، وكنت أحلم بأن أستخدم تلك النقود يوماً ماً لشراء مكتبة أملأها بالكتب ذات الأغلفة اللماعة والجميلة مثل مكتبة الأستاذ سعد، التي حدث أن نظرت إليها ذات يوم واعتبرتها حماقة مطلقة، وإذ بها تصبح حلمي الوحيد.

حين حكيت بفخر للأستاذ سعد كيف باتت بنات المدرسة يطلبن مني أن أكتب لهن مواضيع التعبير ورسائل الحب، أطلق قهقهة عالية، وقال:

- لقد تلبستك روح بائعة كلمات إيزابيل الليندي!

obeikandl.com

نظرت إليه بتعجب، فانتصب واقفاً، وراح يبحث في المكتبة، ثم مد يده والتقط كتاباً متوسط الحجم، فتح الصفحة الأخيرة، وأخذ يبحث فيما تبين لي لاحقاً أنه فهرس القصص ، ثم فتح الكتاب عند إحدى الصفحات، وأخذ يقرأ بوجه باسم: (كان اسمها العجيب هو بيليسا كريبوسكولاريو، وهو اسم لم يأت من شهادة العماد أو من سداد بصيرة أمها، وإنما بحثت هي نفسها عنه إلى أن وجدته ولبسته. كانت تمتهن بيع الكلمات، وتجوب العالم قاصدة المهرجانات والأسواق لتنصب أربعة عصي ومظلة من أكياس، تحتمي تحتها من الشمس والمطر أثناء تلبيتها طلبات زبائنها. لم تكن بحاجة للإعلان عن بضاعتها، فلكثرة ما تنقلت من مكان إلى آخر، صار الجميع يعرفونها، وهناك من كانوا ينتظرون قدومها من سنة إلى أخرى، وحين تظهر في القرية وحزمتها تحت إبطها يصطفون أمام محلها بالدور.

كانت تبيع بسعر مناسب. فبخمسة سنتافو تقدم أشعاراً مرتجلة، وبسبعة تحسّن من نوعية الأحلام، وبتسعة تكتب رسائل للمحبين، وباثني عشر تعلم شتائم محدثة لأعداء لدودين. ومن يشتري منها بخمسين سنتافو تهمس له في أذنه بهدية هي كلمة سرية لها قدرة على إبعاد الكآبة. ولم تكن تقول الكلمة نفسها للجميع بالطبع. فكل واحد يتلقى كلمته التي لا يستخدمها لهذا الغرض أحد سواه في الكون الرحب كله أو فيما وراء الكون).

اتسعت عيناي وأنا أستمع اليه وراح قلبي ينبض بشدة. فقد أدركت في تلك اللحظة أن لا شيء يحدث عبثاً في الحياة، ورحت أردد بيني وبين نفسي: إذن أستطيع أنا أيضاً أن أمتهن بيع الكلمات! وسرعان ما تسللت تلك الفكرة المبهرة إلى تجاويف دماغي، وجعلتني أرتعش من فرط الإثارة، واتخذت في لحظة واحدة قراراً لا رجعة عنه:

- اعتباراً من اليوم سأمتهن بيع الكلمات، ولن أهدرها مجاناً على من حولي، ولن تغريني قباقيب السكر أيضاً، فهذه مهنة محترمة تستحق أجراً لائقاً.

ناولني الأستاذ الكتاب الذي كان بدوره يحمل عنواناً جذاباً: «حكايات إيفا لونا»، ضممته إلى صدري، ووعدت نفسي بقضاء ليلة مذهلة برفقته.

تربعت على سريري، وقد وضعت الرواية داخل كتاب العلوم تحسباً لقدوم مفاجئ لأمي، و تجاوزت جميع القصص السابقة، وبدأت مباشرة بحكاية بائعة الكلمات، التي تحمل عنواناً جميلاً: «كلمتان».

أعجبني أن بيليسا كريبوسكولاريو، صاحبة الاسم العجيب، هي من اخترعت اسمها، كونها كانت الابنة الخامسة لأسرة كثيرة الأولاد وبائسة لدرجة أنها لم تكن تملك أسماء لأبنائها. واعترف بأني فكرت للحظات بأن اخترع بدوري اسماً لنفسي، لكني تراجعت سريعاً عن ذاك الخاطر، لأني أملك بالفعل اسماً عجيباً. وعلاوة على امتلاكي اسماً منذ ولادتي فأنا أتفوق

على بيليسا كريبوسكولاريو بكوني تعرفت على الكلمات في سن مبكرة، بينما كانت هي قد بلغت الثانية عشرة من عمرها حين نظرت إلى الكلمات الموجودة في صفحة جريدة طوح بها الهواء لتعلق بقدميها، وحسبت أنها: قوائم ذباب!

(وكان ذلك هو اليوم الذي عرفت فيه بيليسا كريبوسكولاريو أن الكلمات مثل العصافير، تمضي طليقة دون نظام ولا وعي وبإمكان أي كان بقليل من السحر أن يحبسها ليتاجر بها). قرأت تلك الكلمات بتمعن وفكرت، حسناً، لعلنا نتساوى في هذا، فقد اكتشفتا تلك المهنة، تقريباً، في التوقيت ذاته يا عزيزتي بيليسا كريبوسكولاريو!

لكن أمراً استثنائياً اعترض مهنة بائعة الكلمات، حين كتبت خطاباً انتخابياً للكولونيل، الذي هو قاطع طريق يريد أن يصبح رئيساً، وبعد أن سلمته الخطاب، وحصلت على أجر مئة سنتافو، أخبرته بأن له الحق أيضاً في كلمتين سريتين لا يستخدمهما سواه، همست بهما في أذنه ومضت في طريقها.

الكولونيل ظل يردد كلمتيه السريتين طيلة الوقت وهو يبدو غائباً في عالم آخر. وحين رأى رجاله أن حياة قائدهم ستنتهي قريباً قبل أن يصل إلى كرسي الرئاسة، ساقوا بائعة الكلمات، التي سحرته بكلمتين شيطانيتين، كي يعيد الكولونيل إليها كلمتيها المسحورتين:

(تبادل الكولونيل و بيليسا كريبوسكولاريو النظرات طويلاً، وتفحص كل منهما الآخر عن بعد، وحينئذ أدرك الرجال أن الوقت قد فات للتخلص

من هاتين الكلمتين اللعينتين، لأنهم استطاعوا جميعهم أن يروا عيني أسد البوما الضاريتين، وهما تتحولان إلى عينين وديعتين حين تقدمت نحوه دون أن تبتسم، وأمسكت بيده).

أغلقت الكتاب بقلب مضطرب، وحشرت رأسي تحت اللحاف أحاول النوم دون جدوى، وفي اليوم التالي سألت الأستاذ سعد بلهفة: ما هما هاتين الكلمتين السحريتين؟

حدق في عيني بنظرة طويلة لم ينظرها لي قبلاً، ثم قال لي بصوت يشبه تمريرة أصابع على أوتار قيثارة: عليك أن تعرفيهما بنفسك.

obeikandl.com

الفصل الثامن

حاولت اختراع أزهار جديدة، كواكب جديدة، غرائز جديدة، لغات جديدة وتوهمت امتلاك قدرات خارقة للطبيعة.

رامبو

كنت أتأمل الروزنامة المعلقة على باب المطبخ: إنه الأول من نيسان. اليوم الذي لطالما كان بالنسبة لي، منصة انطلاق لشهر حافل، نرتب خلاله أولوياتنا أنا وزوجي بحيث يتمكن من أن يحل مكاني في ملازمة ابننا، كي أشارك في بعض المحاضرات والندوات، التي تقام خلال هذا الشهر، المعتمد عالمياً بوصفه شهر التوعية باضطراب التوحد. لكن في نيسان هذا، لن أكون تلك الأم، التي تشارك الآخرين تجربتها مع طفلها، ولن أملك القوة كي أبث الأمل في نفوس أمهات أخريات يشعرن بأنهن وحيدات وعاجزات، ولا العزيمة لأرمي، كما التزمت دائماً، حجراً في بركة راكدة لمجتمع قاس يمارس التمييز والعنصرية تجاه الضعيف والمختلف.

obeikandl.com

جاء نيسان، هذا العام، وأنا أم ثكلى لا أملك إلا مشاعر الفقد والضعف البشري بأقصى حالات هشاشته. لذلك حين جاء الاتصال المعتاد من مديرة المركز، الذي يعنى بأطفال التوحد ومتلازمة داون، والذي كان بحر يرتاده، كي تدعوني للمشاركة في الندوات. حاولت أن أخبرها بهدوء أني لم أعد تلك الأم الشجاعة، التي تمتلك كلمات باهرة تجعل الآخرين يبكون ثم يبتسمون وأحياناً يضحكون، ودون استخدام مجازات لفظية قلت لها بصوت مرتجف: لكني لم أعد أماً لطفل توحد، هل نسيت؟ لقد قتلوا طفلي.

ساد صمت بيننا، كنت خلاله أبكي، وكانت هي تبحث عما تقوله أمام فاجعتي. كانت تجمعنا صداقة قوية بدأت بإعجابها بالعمود الأدبي الأسبوعي، الذي كنت أكتبه في الجريدة المحلية، وتطورت لاحقاً خلال تشاركنا تفاصيل مأساتنا المشتركة: طفلي المتوحد، وطفلتها المصابة بمتلازمة داون.

قطع صوتها الصمت الحارق، الذي ساد لدقائق، وقالت: أفروديت، ستبقين أماً طيلة عمرك، الأمومة أمر يحدث في القلب، ويبقى فيه إلى الأبد. أنا أنتظرك في المؤتمر، ثمة أناس كثيرون ينتظرونك مثلي.

كنت أشعر بالوهن، علاوة على فقداني إيماني بالكلمات، وقدرتها السحرية على تغيير الأقدار، وكنت أفكر ببائعي الكلمات، الذين اكتشفوا زيف مهنتهم وكونهم يخدعون أنفسهم، ويخدعون أيضاً من يشتري كلماتهم

معتقداً أنها الوعد بالخلاص. وبعد أن تبادلوا نظرات طويلة مع الحقيقة العارية، قرروا أن يخنقوا كلماتهم، ويصمتوا إلى الأبد.

وهكذا ملأت فرجيينا وولف جيوبها بالحجارة الثقيلة وألقت بنفسها في النهر، ووضعت سلفيا بلاث رأسها في الفرن بعد أن فتحت صنبور الغاز، وضغط همنغواي زناد بندقية صيد ثبت فوهتها داخل فمه، وتناول سيزار بافيز علبتي حبوب منومة، وفجر خليل حاوي رأسه برصاصة، في حين غرز يوكيو ميشيما سيفاً طويلاً في بطنه بطريقة الساموراي.

تمددت على الأريكة، وبينما أحدق في السقف، رحت أستعيد تلك المحاضرات، التي كنت أختار فيها أكثر الكلمات فرادة وعذوبة، لأصف الرابط المدهش، الذي يجمعني بابني، ذاك الرابط الذي جعل كل آلام الولادة تختفي لحظة وضعته الممرضة بين ذراعي، ثم كيف تهشمت روحي وأنا أراقبه وقد بات فجأة جافاً لا يظهر عاطفة أو انفعالاً، لا يلتفت إلي حين أناديه، ويرفض النظر في عيني. كنت أتأمل وجوه الحاضرين، الذين هم في غالبيتهم آباء وأمهات لأطفال توحديين، كان الألم يطل من وجوههم، لكن شعوراً بوحدة الحال مع من حولهم كان يمنحهم شيئاً من العزاء. كان منصفاً أن أقول أن سوء الطالع هو ما يجمع بيننا، لكني اخترت دائماً أن أقول لهم أن ما يجمعنا، هو أنه تم اختيارنا لاختبار نوع سام من الحب، حيث لا ننتظر قبلات مقابل قبلاتنا، ولا ضحكات تفرح قلوبنا، لا جلاءات مدرسية، ولا أغنيات تغنى أمام الضيوف، ولا أحلام كبيرة بأيام قادمة، لكن رغم كل هذا

القحط العاطفي، نملك ما يكفي من الحب والحنو لنتعهد بحراسة أطفالنا على حدود ممالك عزلتهم الموحشة، و نستمر في ذلك إلى الأبد.

كنت أتمنى أن أوصل آلامنا إلى الأشخاص الآخرين، أولئك الغرباء عن أوجاعنا، الذين نلتقي بهم في الشارع، في الدكاكين ومقاهي الرصيف والمطاعم، الباعة الجوالون، الشبان الذين يجلسون على أطراف الأرصفة، الأولاد الصغار الذين يلعبون في الحدائق، النساء اللواتي يقفن على الشرفات للثرثرة مع الجارات، أولئك الذين يرموننا بأشواك أنانيتهم وتعاليهم حين ينظرون إلى أطفالنا بأعين فزعة من هيئاتهم المختلفة وصرخاتهم المفاجئة، أو حين يمد أحد أطفالنا يده على غفلة منا، ويحاول انتزاع قطعة حلوى أو كيس رقائق بطاطا من يد أحدهم، فيرميه بكلمة مجنون، التي تخترق القلب وتتركه مدمى لأيام.

كنا نعلم جميعاً أننا حين نغادر قاعة المحاضرات، ونخرج إلى الشارع، سنغرق مجدداً في وحل العالم الواقعي، الذي لا مكان فيه للضعفاء، ولا لمفرداتنا المبتكرة التي نحاول من خلالها تجميل عالم أطفالنا، حين نستبدل كلمة معاق بكلمة مختلف، ومقعد بذي احتياج خاص، وكلمة منغولي بطفل داون، ونقول متوحد عوضاً عن مختل عقلياً أو مجنون.

رنين جرس الباب، قطع علي أفكاري، وإن جعل قلبي يزداد انقباضاً إذ لم أكن بمزاج يساعدني على استقبال أحد، خاصة وأن رنين الجرس في الصباح الباكر نادراً ما جاء بزائر لطيف، فغالباً ماكنت أفتح الباب لأرى

جارتي التي تسكن الطابق الأرضي، بشعرها الأحمر الذي غالباً ما يكون مليئاً باللفائف الملونة، وثوب النوم الذي يكشف عن طيات جسدها الكثيرة، وقد جاءت لتخبرني بصوت لئيم بأن ابني قد سكب كأس عصير أو شاي على غسيلها الأبيض المنشور للتو على الحبل، أو أن بلاط الحديقة بات مليئاً بلطخات الشوكولا، التي رماها ابني بلؤم عوضاً عن أكلها. ولمعرفتي الجيدة بعادة ابني رمي الأغراض من الشرفة، فقد كنت أعتذر لها مباشرة، وأعدها أن أحاول ألا يتكرر ذلك. وكانت تغادر باستعلاء دون أن تشير إلى استيائها من الأشياء الأخرى التي يرميها أيضاً، والتي سأكون ممتنة في حال إعادتها، لكنها كانت تحتفظ بها من باب الكيد أو كشكل من أشكال التسوية لقاء الإزعاج الدائم الذي يتسبب به ابني.

لكني حين فتحت الباب هذا الصباح لم أجدها خلفه، وإن كان علي أن أعلم أن لا سبب يدفعها لهكذا زيارة صباحية بعد غياب بحر، لكن عوضاً عنها كان يقف زوجها، طبيب الأسنان النحيل، بملابس النوم أيضاً، ويحمل بيده كيس نايلون أبيض كبير الحجم، حياني ومد يده نحوي ليناولني الكيس، قائلاً: لقد بعنا البيت أخيراً، وبينما كنا نحزم أشيائنا، رأيت أنا وزوجتي هذه الأغراض التي سبق ورماها المرحوم في حديقتنا.

تناولت الكيس الثقيل، وشكرته ببرود، وشعرت بالامتنان لأنه غادر سريعاً، قبل أن أضطر لدعوته للدخول.

جلست على الأريكة، فتحت الكيس، وأفرغت محتوياته على الطاولة: ركوة قهوة نحاسية، مفتاح خزانة صدئ، أحذية وصنادل غير متطابقة، جهاز تحكم عن بعد، قميص قطني، قبعة، شوك، ملاعق، صينية، صحون و كؤوس بلاستيكية ملونة.

وبينما أتأمل الأغراض المنثورة أمامي على الطاولة، رحت أستعيد زيارة جاري السابقة منذ عدة أشهر، حين استقبلته بود كوني اعتقدت أن بحر قد رمى شيئاً خطيراً هذه المرة، حتى صعد هو لتوبيخنا عوضاً عن زوجته، وبينما يشرب القهوة، قال لي: اليوم سيأتي أشخاص لرؤية منزلنا، فقد عرضناه للبيع.

همست: جيد، بالتوفيق يا رب.

- في الحقيقة هذه ليست المرة الأولى التي يأتي فيها أشخاص لرؤية البيت، فقد عرضته للبيع منذ زمن طويل، لكن في كل مرة، ورغم إعجاب الزبون بالبيت، كان يحجم عن شرائه.

هززت رأسي متسائلة، وقد بدأت أشعر بالتوتر، وبينما يتحاشى النظر في عيني، قال وهو يحدق في البلاط: الحقيقة أنهم يسمعون صراخ ابنك، ويرونه بينما يقفز على الشرفة، وبالتالي يتوقعون أنهم لن يستمتعوا بالهدوء، الذي جاؤوا طامعين فيه بناء على بعد الحي عن الشارع الرئيسي وضجيج السيارات.

نظرت إليه بخيبة، وقد شعرت بطعنة اخترقت قلبي للتو، وقلت: وبماذا أستطيع خدمتك؟

رفع رأسه فجأة، وبينما ينظر في عيني، همس: أرجوك سامحيني، لكن كل ما أريده هو ألا تسمحي له بالخروج إلى الشرفة خلال الساعات القادمة، أرجوك، أنا بأمس الحاجة لبيع البيت، والانتقال إلى بيت أصغر لأوفر نفقات الجامعة لابني، تعلمين أنه يدرس الهندسة المعمارية في دمشق ومصاريفه كبيرة.

وبينما أحاول منع نفسي من البكاء، قلت له بصوت مرتجف: حسناً.

نظر إلي بخجل بينما يزم شفتيه، وأشاح بوجهه سريعاً قبل أن يرى دموعي، وهي تسيل على خدي، وغادر دون أن ينبس أحدنا بكلمة. كان كلامه ريحاً عنيفة كسرت زجاجاً مخلخلاً في روحي، فأنا كنت واثقة أن هدفه من البيع، هو الهروب من الحي، ليتخلص من إزعاج ابني وصراخه الدائم، الذي لا أستطيع منعه عنه، لأنه طريقة تواصله الوحيدة مع الحياة.

رن الجرس مجدداً، قاطعاً شرودي، فمسحت دموعي، ونهضت وأنا أتوقع أن جاري يريد استعادة أحد محتويات الكيس. وحين فتحت الباب، رأيت فتحي، بوجهه الضاحك وحاجبيه المرفوعين إلى الأعلى دائماً، وهو يحمل في كل يد سلة، إحداهما مليئة بالتفاح، والثانية عرفت من القش الذي يغطي سطحها أنها مليئة بالبيض البلدي. ضممته إلي، ورحت أداعب رأسه الذي لم يعد فيه شعرة واحدة منذ بلغ الثلاثين من العمر. ورغم رأسه

الأجرد إلا أن وجهه ظل محافظاً على ملامح طفولية عجيبة لم يستطع الزمن محوها بإسفنجة قساوته.

دخلنا سوية إلى المطبخ لنحضر الفطور كما هي طقوسنا المعتادة كلما جاء لزيارتي، وسرعان ما نزعت الشعر المستعار عن رأسي، لأنه بدأ يلسع جلدي من جهة، ومن جهة ثانية لأني لم أكن مضطرة لارتدائه أمام فتحي، الذي رغم مرور السنين، مازال في عيني ذات الطفل الصغير البائس، الذي لا يحسن العد. وبينما نأكل البيض المقلي بالزبدة راح فتحي يحدثني بافتتان عن هوايته الجديدة في كش الحمام، والتي يصر أنه خلق لأجلها، شارحاً لي بجدية أنها مهنة حقيقية وليست إضاعة للوقت كما يشاع، ولها آفاق كثيرة في بلاد الغرب، ودليله على ذلك حكاية كشاش حمام سوري بات نجماً استعراضياً في ألمانيا، بعد اكتشاف الألمان موهبته الغريبة في استقطاب الحمام والتحكم في أسرابه، إذ قام رئيس بلدية المدينة بتعيين الحميماتي اللاجئ موظفاً في إحدى الحدائق الكبيرة، ليؤدي استعراضات يومية باستخدام الحمام، الذي يستجيب لصفيره ويطير ويحط طوعاً لبنانه.

وبحماس يعجز عنه من لم يكن فتحي، راح يشرح لي أن أحد رفاقه الحميماتية وعده بأن يصحبه إلى مقهى في دمشق خاص بالحميماتية، حيث يعقدون هناك الصفقات الخاصة بالطيور التي يصطادها أحدهم من كشة الآخر، والتي قد تنتهي بجرائم في حال رفض أحدهم الاعتراف بسرقة حمامة من كشة حمام أخرى.

وهمس لي بينما يرمش بعينيه بخوف: يقولون إن داعش أصدرت قراراً يمنع تربية الحمام، وتطييرها في الرقة ودير الزور، ومن يخالف القرار يتعرض للجلد أو السجن ويدفع غرامة.

حركت مشاعري مخاوف فتحي الساذجة، الذي لا يخشى من وصول التكفيرين إلى قريتنا إلا أن يمنعوه من كش الحمام الذي بات كل حياته، متجاهلاً أنهم ما إن يصلوا إلى مدينة أو بلدة لا يبقون رأساً على جسد. ابتسمت وهمست مطمئنة: لا تخف يا حبيبي، الطائرات الروسية تقصف رؤوسهم كل يوم، ولن يصلوا إلينا أبداً.

فنظر إلي بغضب، وراح يشتم الطائرات الروسية وطياريها، الذين يتقصدون التحليق على مسافات منخفضة في حركات استعراضية، فتكاد طياراتهم تلامس أسقف البيوت، ما يجعلها تصطدم بأسراب الحمام، وتقتل بعضها.

وهكذا كان كل من داعش والروس بالنسبة إلى فتحي يمثلان الشيء ذاته: قاتلي حمام!

obeikandl.com

الفصل التاسع

نلتقي بعد قليل، بعد عام، بعد عامين وجيل.

محمود درويش

لن أنسى ما حييت يوم طرقت باب بيت الأستاذ سعد بحماسي المعتاد، بينما زعتر ينبح خلفي، وفتحي يحاول أن ينهي التهام التفاحة التي سرقها منذ لحظات من الشجرة الكبيرة عند مدخل الحديقة، وعوضاً عن وجه الأستاذ الباسم، فاجئنا وجه نحيل متجهم لامرأة جعلتنا نظراتها المتعالية نتراجع عدة خطوات إلى الخلف. حتى زعتر توقف عن النباح وقفز متراجعاً عن العتبة التي كان واقفاً عليها. كنت على وشك أن أستدير وأركض مبتعدة، لولا ظهور الأستاذ سعد خلف المرأة، بابتسامته المعتادة، ودعوته لنا كي ندخل، بينما يقدمنا إلى المرأة مستخدماً اللغة الفرنسية، دون أن يفلح تعريفها بنا في تغيير نظراتها غير المرحبة. و بعد أن استوعب فشله في انتزاع ابتسامة أو أي رد فعل من فزاعة القش الواقفة قربه، قال بلهجة رزينة: هذه زوجتي كاترينا، هي لا تتقن العربية، فلا تستغربوا عدم ترحيبها.

سرنا وراءه إلى غرفة المكتب، بينما تولت زوجته إغلاق الباب، وهي تراقبنا بعينين يابستين. وكالعادة اتخذ فتحي مكانه المعتاد خلف المكتب،

obeikandl.com

وجلست أنا على الكرسي الهزاز أقرأ ما تبقى من رواية «ذهب مع الريح». وبينما كانت عيناي مثبتتين على صفحات الكتاب، كنت أفكر بتلك المرأة، التي تبدو كما لو هبطت من الجحيم، واقتحمت فردوسنا الخاص. ولم أكن أفهم كيف لامرأة متجهمة كهذه أن تكون زوجة رجل لطيف المعشر مثل الأستاذ. كان شيء في نظراتها يجرح الروح، كما لو كانت عيناها سوراً مليئاً بقطع الزجاج الجارحة، علاوة على أنها لم تكن تشبه الفرنسيات الجميلات اللواتي نشاهدهن في التلفزيون، بل أكاد أقسم بأنها لو خلعت قميصها الحريري وتنورتها الضيقة الأنيقة، وارتدت عباءة مزركشة بورود كبيرة، وأمضت نهاراً كاملاً في أحد الحقول حتى تلفح الشمس بشرتها الصهباء، لبدت دون ريب واحدة من نساء قريتنا، طبعاً واحدة من غير الودودات منهن. كانت نحيلة جداً، تملك شعراً أحمر تخبر خصلاته المعقوصة أنها تمضي الليل برأس مليئة باللفائف، ويبرز في وجهها أنف معقوف بطريقة لافتة، وشفتين رقيقتين، في حال قبلنا تسمية هذين الخطين المبهمين شفتين، وتكتمل هذه اللوحة غير المريحة للنظر بعينين زرقاوين ضيقتين لهما نظرة مدير مدرسة، ليس مدير مدرسة فرنسية بطبيعة الحال، بل مدير مدرسة قريتنا الذي يتنقل بين الصفوف حاملاً بيده عود رمان ثخين.

كان الأستاذ يختصر اسمها ويناديها كات، وسرعان ما تكشف أن كات هذه قد وضعت لنفسها هدفاً أساسياً يتمثل في إفساد ساعة البهجة، التي كنت أحصل عليها ثلاث مرات أسبوعياً، والمتمثلة بالجلوس على كرسي

الخيزران الهزاز بينما أقرأ رواية، وأسترق النظر بين الفينة والأخرى إلى الأستاذ لأشعر بالطمأنينة وصلابة العالم في حضوره. ساعة كانت كافية لأشعر بأني فتاة سعيدة وربما أتفاءل أكثر، وأقول: فتاة محظوظة.

لكن كات وضعت استراتيجية محكمة لإفساد سعادتي هذه، بطلبها مساعدتي في أي شيء يخطر في البال، ورغم أنها لا تتكلم العربية، فقد كانت تعرف تماماً كيف توصل لي ماذا تريد مني، مستعينة أحياناً بالأستاذ سعد، الذي كان يبدو مغلوباً على أمره أمامها، وغالباً ما كانت تطلب مني مساعدتها في تقشير الثوم، وفرم البقدونس ومكونات السلطة، عصر عشرات البرتقالات والليمونات وأي شيء قابل للعصر، مراقبة الحليب على النار، وأحياناً كثيرة كان يحلو لها التخلص من وجودي نهائياً بإرسالي برفقة سلة قش إلى الحديقة كي أقطف التفاح والدراق.

وبينما أنفذ طلباتها كنت أتأمل في سوء طالعي الذي تسبب باستبدال رفقتي المبهجة للأستاذ ورائحة الكتب، برفقة هذه المخلوقة البائسة التي، وإن كنت واثقة من كرهها لي، إلا أني كنت أؤمن بأنها لا تكرهني على وجه الخصوص، بل تكره الكائنات الحية بشكل عام. وتبين لي لاحقاً أن الحياة بشكل عام تمثل وسطاً غير ملائم لها، فهي كانت تتحسس من الزهور والتوابل والعطور، علاوة على أن الربيع يسبب لها عطاساً واحتقاناً دائماً في الأنف، ولديها أيضاً حساسية من وبر الكلاب والقطط، وهذا كان التفسير الذي قدمه لي الأستاذ ليبرر لي زعيقها كلما رأت زعتر عند العتبة.

وزعتر بدوره كان يزمجر كلما رآها، بعد أن أدرك أن هذه العابسة غريبة الأطوار هي المسؤولة عن غياب الصحن المليء ببقايا الطعام، والذي كان الأستاذ يتركه لأجله عند العتبة.

ولم يمر وقت طويل حتى تبين أن هذا الزواج غير المعقول كان مليئاً بالمشاكل والمنغصات، وكان علينا في مرات كثيرة أن ننتظر أنا وفتحي في غرفة المكتب بقلبين مرتجفين، انتهاء شجارهما الذي يصل إلى مسامعنا من المطبخ أو الطابق العلوي حيث غرف النوم. ولاحقاً بتنا نأتي ونغادر دون أن نرى كات، ورغم أن هذا كان كفيلاً برسم ابتسامات كبيرة على وجوهنا جميعاً بمن فينا الأستاذ، إلا أن ذلك لم يمنحنا الطمأنينة القلبية التي كنا ننعم بها قبل ظهورها في حياتنا.

وسرعان ما بدأت نساء القرية بالثرثرة على زوجة الأستاذ، التي رفضت الترحيب بضيوفها حين جاؤوا لزيارتها محملين بسلال الفاكهة واللوز والبيض، بل منهن من أقسمن أنهن سمعن صوت زعيقها على الأستاذ حين حاول إقناعها بالخروج من غرفة نومها لاستقبال الضيوف. وبدأ أهالي القرية يتداولون أحاديث، تضاف إليها توابل جديدة من يوم لأخر، تفيد بأن زوجة الاستاذ التي تحمل شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية، وتتحدث لغات عدة إلى جانب الفرنسية، رفضت أن تتعلم العربية لأنها تكره العرب، وتعتبر تعلم لغتهم انتقاصاً من شأنها، ولم يستطع أحد منهم صياغة تفسير مقنع لزواجها، بالرغم من ذلك، من رجل عربي.

وهكذا جاء اليوم الذي عرفت فيه للمرة الأولى أن السعادة قابلة للانتهاء مثل كيس قباقيب السكر أو قطعة الشوكولا التي تبدو أزلية. ففي ذلك اليوم الذي وشم قلبي بجرحه الأول، وبعد أن انتهى الأستاذ من تدريب فتحي على لفظ أحرف جديدة، وكتبها له على ورقة كي يتدرب على كتابتها، نهض من مكانه على يمين المكتب، وجلس على الأريكة قرب كرسي الخيزران الهزاز الذي بات مخصصاً لي، ثم قال وهو ينظر إلي بحنو: أفروديت، ضعي الكتاب من يدك، اليوم أنا سأحكي لك حكاية.

لمعت عيناي بالفرح، وإن كان قلق خفي انتابني فجأة و لم أستطع تفسيره، إذ لمحت طيفاً من حزن في عينيه لم أره سابقاً. وراح يحكي لي حكاية زيوس كبير الآلهة، الذي وقع في غرام امرأة من البشر اسمها إيوا، وكانت المرة الأولى في تاريخ الكون التي يعشق فيها إله امرأة من البشر. وعندما علمت زوجته هيرا بذلك، استشاطت غضباً ومسخت إيوا إلى طائر. وحين رأى زيوس ما فعلته زوجته، قام بمسخ حبيبته إيوا إلى بقرة كي لا تتعرف إليها هيرا، لكن حين رأته هيرا مع البقرة وسألته عنها، ادعى أنها بقرة هائمة عثر عليها في أحد الحقول، فتظاهرت هيرا بالسذاجة، وأبدت إعجابها بالبقرة، وطلبت منه أن يهديها إياها. ولما لم يجد زيوس عذراً للرفض أعطاها البقرة، وقلبه يكاد ينفطر. هيرا، التي تعرف حقيقة البقرة ، سلمتها إلى المسخ أرجوس، الذي له عدد لا يحصى من العيون، وأمرته بأن يأخذ البقرة إلى منطقة نائية، و يربطها بحبل غليظ إلى ساق شجرة بحيث لا تستطيع الهرب

أبداً. وظل زيوس يبحث عن إيوا، حتى عرف مكانها، وحينها أرسل إليها تابعه هرميس، الذي حررها بعد أن قتل المسخ، وحين علمت هيرا بذلك، بلغ غضبها ذروته، فسلطت على إيوا ذبابة شرسة ظلت تلدغها ليل نهار، وتطاردها في كل مكان حتى ماتت.

توقف عن الكلام للحظات، ثم همس: هل فهمت الحكاية يا أفروديت؟

حدقت في عينيه، وهززت رأسي نافية.

تنهد ثم قال، وهو ينظر إلى أصابعي المتشبثة بالكتاب في حضني: بإمكان امرأة تشعر بالغيرة أن ترتكب حماقات كثيرة، وتتسبب بأذيات بالغة.

تابعت التحديق إليه باضطراب، وقد لاحت في عينيه نظرة غريبة.

قطع الصمت الذي ساد للحظات، وقال: في المرة القادمة أريدك أن توصلي فتحي، وتغادري مباشرة، وسأرسل لك الكتب معه. كات مريضة جداً ومضطربة وتتوهم أشياء كثيرة، وأنا لا أريد أن تتسبب لك بالأذى.

حينها نظرت إليه بعينين دامعتين، وهمست وأنا أرتعش: لكني لم أفعل شيئاً شيئاً!

مد يده، وراح يمسح بأصابعه الدموع عن وجنتي المبللتين، ثم مسح بيده على رأسي، وقال: أعرف يا أفروديت، أعرف يا صغيرتي.

في ذلك اليوم وقف الأستاذ سعد أمام المكتبة طويلاً، وانتقى مجموعة كتب، أعطاني إياها، معتقداً أنه بمنحي هذه الفراديس الصغيرة، يستطيع أن

يحميني من الوحشة التي تنتظرني بعد أن نفيت بعيداً عن فردوسي الوحيد في هذه القرية البائسة. أخذت الكتب مطأطئة الرأس، ولم أنبس بكلمة.

نظر إلي مطولاً، ثم قال: بالنسبة للكلمتين اللتين أهدتهما بائعة الكلمات للكولونيل.

نظرت إليه بحزن، وهززت رأسي متسائلة، ابتسم ابتسامته الشبيهة بحقل عباد شمس، وقال بينما يتأمل في وجهي البائس: أنا أحبك!

openkandl.com

الفصل العاشر

يجب أن نتعلم الدرس الذي تعلمنا إياه الطبيعة

وهو ألا نسأل عن سبب جراحنا

إن لم تكن تلك الجراح ممكنة الشفاء.

فيلم كابتن كوريليس

سمعي يشبه تماماً استعمال سماعة أذن لتكبير الصوت، مع وضع مؤشر الصوت على أقصى درجات الارتفاع، أو مثل ميكروفون يلتقط جميع الأصوات في آن معاً.

كنت أحملق في شاشة العرض الكبيرة، التي تطل منها فتاة في مقتبل العمر، بشعر ذهبي قصير، وجسد نحيل، وعينين لا تتوقفان عن الحركة، تقف بارتباك وسط قاعة تعج بالرجال والنساء، وتشرح بصوت متلعثم بينما تحملق في الأرض، أنها مصابة بالتوحد، وأمضت سنوات طويلة تعاني الإحباط جراء حساسيتها العالية للضجيج واللمس، وكان الصراخ هو وسيلتها الوحيدة للتواصل مع الآخرين و التعبير عن نفسها، لكن إحباطها هذا لم

obeikandl.com

يمنعها من الذهاب إلى المدرسة ثم إلى الجامعة، لأن أمها آمنت بها، وبكونها قادرة على التعلم.

وبينما تؤشر بإصبعها بقوة، هتفت بصوت أكثر ثقة وتحدياً: كنت أعلم دوماً أنني مختلفة، لكني لست أقل!

كانت تلك تيمبل جراندين، التي يتناول الفيلم قصة حياتها، وقد باتت اليوم بروفيسورة أمريكية متخصصة في علم الحيوان، وصاحبة أفضل الكتب مبيعاً في سلوك الحيوان، علاوة على اختراعها آلة العناق والآلة التي تسير عليها الماشية عندما تتوجه إلى المذبح. كنت أتأمل في قصة نجاح هذه الفتاة التوحدية، و أستعيد في الوقت ذاته النجاحات البسيطة، التي كنت أحلم بأن أرى بحر يحققها ذات يوم، كأن يتمكن من ربط حذائه بنفسه، ويرتدي ملابسه دون حاجة إلى مساعدة، أن يستخدم الحمام بمفرده، وألا يضع قبضة يده في صحن الطعام حين يجوع، وأن أراه يوماً وهو يمسك الملعقة بيده ويتناول طعامه كأي فتى في عمره، علاوة على أشياء أخرى كان عجزه عن القيام بها يمزق شغاف قلبي، كعجزه عن التعبير حين يؤلمه بطنه أو أحد أسنانه، وقيامه بضرب رأسه في الحائط مرات متتالية، حتى أنتبه أن ثمة مشكلة ما.

كان في الرابعة عشرة حين بلغ عدد الأسنان التي فقدها أربعة أسنان، رغم أن الأمر لم يكن يتطلب أكثر من حشو سن منخور، إلا أنه مع حالة فرط الحركة لديه، واستحالة جعله يجلس على كرسي طبيب الأسنان لعلاج

السن، كان الحل الوحيد لإنهاء الألم هو قلع السن المنخور. رغم أن هذا الحل لم يكن سهلاً بدروه، إذ كنا نتعاون أنا و وزوجي وأخي فتحي والممرضة كي نثبته على كرسي طبيب الأسنان، بينما يقاومنا ويصرخ، حتى يتمكن الطبيب من ضربه إبرة التخدير. وبعد أن يغفو، يقلع الطبيب أخيراً السن المنخور. كان زوجي يحمله بين ذراعيه، وهو مازال نائماً، ونعود إلى البيت، وبعد أن يصحو تحرقني نظراته الفزعة المشمئزة كلما بلع ريقه، وكنت أستطيع أن أتوقع أن السبب هو طعم الدم اللاذع الذي ينزف من اللثة في موضع السن المنزوع، والذي يبتلعه عوضاً عن بصقه.

كانت تيمبل تتحدث عن آلة للعناق اخترعتها عندما بلغت الثامنة عشرة، وساعدتها في تهدئة أعصابها، وتحسين قدرتها على تحمل ملامسة الآخرين لها:

استوحيت الفكرة من مزارع الماشية، إذ أدركت أن الضغط العميق له تأثير مهدئ على الماشية وأردت الأمر ذاته لنفسي.

فجأة همست المرأة الجالسة قربي: أعتقد أننا بحاجة إلى آلة العناق هذه أكثر منها.

التفت إليها وابتسمت، كانت امرأة في بداية الثلاثينيات من عمرها، ترفع شعرها إلى الأعلى وتجمعه في كعكة صغيرة، كان وجهها خال من المساحيق، ورغم شحوبه إلا أن عينين زرقاوين كانتا تضيئان فيه، وتمنحانه شبه حياة.

obeikandl.com

قلت لها: ما نحتاج إليه لم يعد شأناً مهماً.

نظرت إلي بحزن، وقالت: صحيح، لعلنا لم نعد بشراً منذ سنين طويلة.

وقبل أن أتمكن من الرد، فوجئت بدموعها تسيل على خديها، ما جعل قلبي يضطرب، وقد شعرت بالذنب لأن جلافتي غير الضرورية، قد أثارت لديها رد الفعل المباغت هذا.

وضعت يدي على يدها، وناولتها منديلاً ورقياً، وهمست: ما رأيك أن نخرج قليلاً، الجو هنا بات خانقاً.

نظرت لي بامتنان بينما تمسح عينيها بالمنديل، وهزت رأسها موافقة.

جلسنا على طرف السلم الرخامي عند بوابة مدرج المحاضرات، حيث ينعقد المؤتمر السنوي للتوحد، أخرجت علبة سجائر من حقيبتها، ناولتني واحدة، أشعلتها لي، ثم أشعلت أخرى لها، وقالت: الدخان المسالم المنبعث منها بات نديمي الوحيد في هذه الحياة الضيقة.

شعرت بانقباض في صدري، وأنا أرى القدر يقودني إلى بائعة كلمات أخرى، تحترف استخدام الكلمات التي تمزق القلوب.

ابتسمت بينما أمد لها يدي، وقلت: اسمي أفروديت.

رفعت حاجبيها، وهي تمد يدها لتلتقط يدي، وهتفت: اسم جميل! أنا رانيا.

صمتت كلتانا لدقائق غرقنا خلالها في دخان سيجارتينا، الذي شكل سحابة صغيرة فوقنا، وما لبثت أن قالت:

- أتصدقين، هذه هي المرة الأولى منذ سنوات طويلة، التي أخرج فيها من البيت دون ابنتي، لا أستطيع تذكر متى كانت آخر مرة جلست في مقهى، أو تنزهت في السوق ، بل إني لم أر بحر مدينتنا الذي نتباهى به، والذي كنت أتحين الفرص للسير على شاطئه، منذ خمس سنوات.
- كم عمر ابنتك؟
- إحدى عشرة سنة، اسمها تالا، لديك ابن أم ابنة؟
- كان لدي ابن، اسمه بحر، توفي منذ ثلاثة أشهر.

نظرت إلي بأسى، وهمست: آسفة.

ابتسمت لها وقلت: لا عليك.

بعد لحظات من الصمت، قالت: جلست مع مديرة مركز التوحد قبل المؤتمر، تحدثنا حول وضع ابنتي، هي حبيسة البيت منذ أشهر، ولم أعد قادرة على إرسالها إلى المركز.

هززت رأسي متسائلة، فتابعت: هي تخلع ملابسها كلما غفلت العين عنها. كان الأمر قابلاً للتدارك حين كانت صغيرة، لكنها دخلت سن البلوغ الصيف الفائت، وبدأ يظهر لها ثديان، باتت تشبه امرأة صغيرة، وصرت

obeikandl.com

أخشى عليها، علاوة على أن المشرفين على المركز باتوا يشعرون بالإحراج والارتباك كلما خلعت ملابسها على غفلة منهم.

لم أعرف ماذا أقول، كنت أفهم تماماً ما تشعر به، وكنت أملك ما يكفي من الحكمة لأصمت أمام ألمها. رحت أتأمل وجهها، وأفكر كيف جعلتها مأساتها، تبدو هرمة، لكن بشكل نافر، كما لو كانت طفلة تحمل عكازاً، أو عجوزاً ترتدي ثوب بنت صغيرة. كانت زمنين متناقضين حاضرين في جسد واحد.

للحظات شردت وأنا أفكر في الكلمة التي يفترض أن ألقيها في نهاية المؤتمر، لكني سرعان ما اتخذت قراري بأن كلماتي هذه المرة ستكون لرفيقتي الطارئة هذه، التي ربما تحتاج من يخبرها أن ما ترغب به مازال مهماً، وليس العكس.

- ما رأيك بالتنزه قليلاً على الكورنيش؟

ارتبكت كمراهقة تلقت للتو دعوة للهروب من المدرسة، وقالت: وماذا عن المؤتمر؟

قهقهت، وأشرت لها برأسي أن تنهض، وقلت: كلمات، كلمات، كلمات.

بينما نمشي بخطوات متمهلة راحت تحدق في البحر بنشوة طفلة تختبر رؤيته للمرة الأولى، وقد عادت الحياة فجأة إلى وجهها الشاحب، التفت إلي، ثم قالت: تركت ابنتي مع جدتها، لا أريد تخيل ما يمكن أن يكون قد حدث

obeikandl.com

في غيابي، هي كثيرة الحركة، ولا يمكن التنبؤ بتصرفاتها، أو إيقاف نوبات صراخها. لكني أحتاج أن أتنفس، وأن أشعر بأني ما زلت إنسانة، لقد قست علي الحياة كثيراً. أحياناً أنظر إلى وجهي في المرآة ولا أصدق أن هذه المرأة اليابسة هي أنا، أتأملها، و أسأل نفسي متى ذهبت إلى مصفف الشعر آخر مرة؟ أو اشتريت ثوب نوم مثير؟ أو حذاء بكعب عال؟ أحاول أن أستعيد تلك المرأة التي كنتها، لكني لا أعثر عليها، فقد غاصت في رمال فجائعها المتتالية.

صمتت قليلاً، ثم تابعت، وقد عاودت التحديق في البحر: منذ اكتشافي إصابة ابنتي بالتوحد، حين كانت في الثالثة من عمرها، فقدت مثلها كل اتصال لي مع الآخرين ومع الحياة، لهذا لم أستطع أن ألوم زوجي حين راح يبحث عن المرأة التي عشقها يوماً حد تغيير دينه واعتناق الديانة الإسلامية لأجلها، وحين لم يعثر علي صار يبحث عني في امرأة أخرى، وهجرنا أنا وابنته لنكمل السير في درب آلامنا وحيدتين.

زفرت زفرة طويلة، وأنا أستمع إلى بوحها الموجع، وأختبر ألم أن يكون الواحد منا إنساناً، يملك قلباً هشاً سهل الانجراح، ومرمياً في عالم فيه احتمالات لا تحصى لكل الآلام الممكنة.

وبعد دقائق صامتة، همست لها: ثمة سوء فهم بينك وبين الزواج يا عزيزتي.

- لماذا؟

- الزواج أكثر رحابة من قصة شعر لا تتغير أو قميص نوم قطني قديم، الزواج هو امتلاك الشجاعة الكافية للتعهد بحماية إنسان آخر إلى الأبد، حين نستبدل الأنا ب نحن، ونملك القدرة على أن نعطي دون انتظار مقابل.
- لكنني أصبحت امرأة أخرى جافة، بليدة وهرمة، امرأة لا تشبهني.
- توقفي عن جلد نفسك، كل ما في الأمر، أنك تزوجت الرجل الخطأ. زوجك أصابه الذعر، بينما يراقب ابنته تكبر، وشعر بالعجز. كلنا تجرعنا هذه المرارة، لكن زوجك اختار الطريق الأكثر سهولة: الفرار.

وقفت رفيقتي فجأة، وأمسكت يدي والدموع تنساب على خديها، وقالت: منذ سنين طويلة، لم يعرض علي أحد القيام بنزهة، ولم يخطر في بالي أنني أستحق هكذا رفاهية، شكراً لكل شيء أفروديت، لقد منحت قلباً متعباً هدية، وشكراً لأذنيك اللتين أنصتتا إلي.

ضمتني إليها في عناق دافئ وحميم بين غريبتين صارتا على غفلة منهما صديقتين، وغادرت دون أن يخطر لنا أن نتبادل أرقام هواتفنا. هي لم تفكر بذلك لأنها استعادت خلال لحظات قلقها الأزلي على طفلتها، وراحت تستعرض في عقلها سيناريوهات لما يمكن أن يكون قد حدث في غيابها، وصار همها العثور على سيارة أجرة والعودة سريعاً إلى البيت خوفاً من عواقب فرحها البسيط الذي سرقته للتو من الحياة. وأنا كنت أعلم في العمق، أنه

لم يعد أمامي متسع من الوقت للقاءات قادمة مع صديق أو حبيب. لذلك راقبتها وهي تركب التكسي وتلوح لي بيدها، ثم استدرت لأعود بدوري إلى بيتي، أفكر بقلب مكسور بكم الآلام التي اجتمعت اليوم في ذاك المدرج، آلام أولئك الرجال والنساء الذين لم تعد لهم هوية إلا كونهم آباء أطفال توحديين. وخطر لي للمرة الأولى أن أطفالنا ليسوا الضحايا في هذه الحكاية، فهم يعيشون عالمهم الخاص، يمارسون التكرار السعيد للتصرفات ذاتها والحركات ذاتها عشرات المرات، يصرخون حين يشاؤون، ويرغمون من حولهم على الإذعان للغتهم وإرادتهم، هم منسجمون في عالمهم، كاملون لا يفتقدون شيئاً، ولا تعنيهم همومنا وتصنيفاتنا البشرية. بينما نمضي نحن أعمارنا مسربلين بالآلام، نحصي المسرات التي لن يتعرف أطفالنا على مذاقها أبداً، والطرق التي لن يمشوا فيها، و الدهشات التي ستمر قربهم وتتجاوزهم لأنهم لن يلتفتوا إليها.

obeikandl.com

الفصل الحادي عشر

في كل لحظة من حياتنا يكون لدينا قدم في قصص الجنيات وقدم أخرى في الهاوية.

باولو كويلو

كنت وخمس من رفيقاتي نجلس متربعات في فيء شجرة الجوز أمام بيتنا، تتوسطنا كومة كبيرة من ثمار الجوز، نهشم قشورها الصلبة بمطرقة خشبية، وبينما نمضغ اللب الشهي نتسلى بأحاديث النميمة والثرثرة على رفيقاتنا الغائبات. ومع انتهاء الثرثرات المتاحة ليوم واحد، كنا على وشك أن تعود كل واحدة منا إلى بيتها، لولا أن إحدى البنات قررت أن تحكي لنا ما فعله حبيبها لأجلها، وهنا عاد الحماس إلى وجوهنا، ورحنا نستمع إليها باهتمام بينما نحدق في ثديها الناهدين، اللذين هما على الأغلب السبب في كونها تملك حبيباً، فيما لا نحظى نحن إلا بالتنمر من الصبيان. وإن كان هذا الحبيب مجرد صبي يدرس في الثانوية المهنية في قرية مجاورة، وكان غالباً ما يهرب من المدرسة ليتسكع أمام مدرستنا برأس حليقة، يشاع أنها نتيجة

obeikandl.com

عقاب والده له على هروبه المستمر من المدرسة علاوة على ضبطه متلبساً بتدخين السجائر التي يسرقها من جيوب أبيه.

وأمام حماسنا الكبير راحت تحكي لنا كيف أن حبيبها وبينما كان يقفز عن سور مدرسته، وقعت عيناه على أكياس غزل البنات، موضوعة على الرصيف، وصاحبها أبو عبدو الجشع مستند إلى عمود الكهرباء، وشخيره يملأ المكان. وأبو عبدو هذا كان يستغل براءة بضاعته الملونة للوقوف أمام المدارس دون شبهات، ليبيع إلى جانبها السجائر التي يبيعها للأولاد بالسيجارة الواحدة من باب مراعاة فقرهم، علاوة على حبوب ملونة، يقال إنها تؤمن رحلات مجانية إلى كواكب أخرى. وهنا خطرت للعاشق فكرة سرقة أكياس البهجة تلك وإهدائها لحبيبته، متحرراً من الشعور بالإثم، نظراً لكون أبوعبدو لا يعدو كونه لصاً.

اقترب على أطراف أصابعه، وسحب بهدوء الحبل المربوطة إليه الأكياس مستغلاً خلو الطريق من المارة، وراح يركض بأسرع ما يملك من قوة، وكي لا يلفت النظر إلى غنيمته الملونة، التقط كيس نايلون أسود رآه مرمياً على طرف الطريق، وخبأ الأكياس فيه. وحين وصل إلى القرية أفرغ محتوياته في تنور مهجور في أحد الاحراش، ودعا حبيبته للجلوس على طرف تنور المفاجآت، وصار يمد يده ويخرج الأكياس الواحد تلو الآخر. وظلا يلتهمان محتويات الأكياس إلى أن انتفخ بطناهما، وشعرا أنهما قد يموتان في حال تناولا المزيد.

حين أنهت البنت حكاية حبيبها اللص، كنا نتأمل بذهول زهوها بلصوصية حبيبها، الذي أعلنت بفخر أنه يشبه روبن هود، اللص الظريف، ولا ينقصه إلا قبعة بريشة!

وما لبثت إن أثارت قصتها غيرة فتاة ثانية، أرادت أن تكون لها هي الأخرى حكاية، فأخرجت من جيب بنطالها ورقة صغيرة مليئة بخربشات بقلم أحمر، وراحت تقرأ لنا ما قالت إنه شعر كتبه لها حبيبها:

عيناكِ غابتا نخيل ساعة السحر أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر

عيناك حين تبسمان تورق الكروم وترقص الأضواء كالأقمار في نهر

وبينما أستمع إلى أبيات الشعر تلك، كنت أحاول تذكر أين قرأت هذه الكلمات، ليس في كتب الأستاذ سعد، بل في واحد من الكتب المدرسية، وسرعان ما تذكرت أن هذه الأبيات هي لشاعر درسنا قصيدته في كتاب القواعد، لكني فضلت أن أغلق فمي، وألا أشهر لصوصية حبيب الفتاة باعتبارها لم تتفاخر بكونه روبن هود مثل رفيقتها، خاصة وأن الأخريات أبدين إعجابهن الشديد بالصبي الشاعر وشعره اللطيف. وكان ذلك بمثابة نبوءة بكم الحمقى الذين سيتخرجون من مدرسة قريتنا في الأعوام القادمة.

وبدا مثيراً للاهتمام أن البنتين كانتا مغرمتين بلصين ظريفين، ولا يمكن التنبؤ إن كانا سيحافظان في المستقبل على صفة الظرافة هذه في حياة اللصوصية، التي يمكن التنبؤ بها لكل منهما، كل في مجاله.

obeikandl.com

حين جاء دوري لأحكي حكاية، أردت أن أنتشل رفيقاتي من عوالمهن الأرضية عديمة البهاء، وأحكي لهن حكاية اسمي الأسطوري، وبينما أهم برواية القصة، كان فتحي قد قفز بيننا، وهو يزعق عارضاً علينا أصابع يده، وقد امتلأت بالثآليل الصغيرة، نظرت إحدى البنات إليه، وهتفت: ياه يا فتحي! لقد عددت النجوم يا منحوس!

نظر إليها فتحي بحقد، وصاح: أنا لا أحسن العد!!

زمت البنت شفتيها، وقالت: هذا يعني أن الحملقة في النجوم تعطي النتيجة ذاتها!

عاود فتحي الزعيق باكياً هذه المرة: أنا لم أحملق في أية نجوم.

ولإنهاء الجدل البيزنطي بين فتحي والبنت، التي كانت قد فتحت فمها لمتابعة حديثها، صحت: هيا اسمعوا الحكاية، في أحد الأيام، زار ملاك مجنح أمي في الحلم، وحكى لها حكاية أفروديت ربة الجمال، التي ولدت من صدفة، كما لو كانت لؤلؤة فريدة من نوعها، ثم أعطى الملاك أمي صدفة كبيرة، وقال لها: ستلدين ابنتك من هذه الصدفة، وطلب منها أن تسمي وليدتها أفروديت، مبشراً إياها بأن فارساً على حصان مجنح سيخرج من كتاب الأساطير، ويأتي ليأخذ أفروديت معه، ليعيشا معاً فوق غيمة.

ونظراً لخبث الفتيات المتأصل فيهن، فقد استطعت قراءة الاستخفاف في أعينهن على اعتبار أني لا أشبه إلهة الجمال بأي حال من الأحوال، ولم أجد ضيراً من ابتكار المزيد من الأكاذيب أو الأساطير الخاصة بي، فتابعت: وقال لها

إن الربات حين يتجسدن في صورة بشرية، يختفي جلدهن الحليبي الشفاف، تحت جلد أسمر سميك، لإخفاء ملامحهن السحرية، لأن من شدة جمالهن، كل من ينظر إليهن من البشر، يصعق ويتحول إلى حجر.

بعد أن غادرت البنات مذهولات بحكايتي، التي تفوقت على حكاياتهن الهزيلة عن لصوص غزل البنات والشعر، وبينما أسير مع فتحي نحو البيت، صاح فجأة:

- لماذا تكذبين، وتقولين إنك ولدت من صدفة؟ ماما تقول إنك ولدت من بطنها!

- أنا لا أكذب يا أحمق، الربة أفروديت ولدت من صدفة، لو كنت تعرف القراءة لعرفت ذلك.

قطب حاجبيه، ثم همس: هل مذكور في الكتب أين ولدت أنا؟

- لا، لأن من يحملون اسم فتحي لا أهمية لمكان ولادتهم.

أطرق فتحي رأسه، وراحت شفتاه ترتجفان، فصفع قلبي الشعور بالذنب، وفكرت بأني خلدون ثان، أتنمر مثله على من هم أقل حجماً مني، فوضعت يدي على رأسه، وقلت بحنو: حسناً، أنا لم أولد من صدفة.

- إذن كنت تكذبين!

- لا، بل كنت أحلم.

- هل أستطيع أن أحلم أنا أيضاً؟

obeikandl.com

- طبعاً تستطيع.

نظر إلي بعينين متسعتين، وراح يحركهما جيئة وذهاباً، يفكر بحلمه أو كذبته الخاصة، وفجأة نظر إلى الديك، الذي كان ينقر البرغل أمام البيت، وهتف: ولدت من الديك!

قهقهت بينما أهتف: الديك لا يلد يا فتحي!

تذكر فتحي البيض الذي تحضره أمي كل يوم من قن الدجاج، وهتف بلهجة منتصرة: باضني الديك!

- ولا يبيض أيضاً، تستطيع اختيار دجاجة لتبيضك، لكن ذلك سيجعلك موضع سخرية الأولاد لعشرات السنين القادمة، في حال سمعوا بقصتك.

نظر إلي بحزن، وهمس: لكن الديك باضني حقاً.

تأملته بشفقة، ولمعت في ذاكرتي عبارة الأستاذ سعد: بيضة الديك! التي تشير إلى حدوث ما لا ينتظر أو يؤمل حدوثه، وضحكت قائلة: فعلا أنت بيضة الديك يا فتحي!

بتذكري للأستاذ سعد، كنت قد أشعلت جمرة وألقيتها في صدري، إذ لم أكن قد رأيته منذ ذلك اليوم البائس، يوم روى لي قصة زيوس وزوجته هيرا. ورغم أني كنت أرافق فتحي إلى باب بيته، إلا أني وبينما يضغط فتحي

على الجرس أكون قد ركضت مبتعدة، وبعد مرور ساعة أقف في انتظاره عند مدخل الحديقة الخارجي.

لم أحاول أبداً أن ألقي نظرة متلصصة إلى نافذة مكتب الأستاذ، ولم أتحايل بالبقاء لحظات إضافية أمام باب البيت علني أحظى بدقيقة معه على العتبة. فأنا ولأسباب خفية كنت عاجزة عن التنازل عن المساحة الشاسعة التي كانت مفرودة بيننا والأشبه بحقل شقائق نعمان.

كنت أشعر طيلة الوقت بأن دجاجات خبيثات ينقرن باطن صدري، ويسببن لي ألماً لا يحتمل، فأكاد أصرخ أرجوهن أن يتوقفن. وكان سؤال واحد يتردد في ذهني طيلة الوقت: هل كانت قصة زيوس وزوجته مدخلاً للحديث عن جنون الزوجات؟ أم مدخلاً للحديث عن حب زيوس لامرأة بشرية؟ أم حب فتاة سمراء بشعر يشبه الخنفساء، لكنها تتقن بيع الكلمات ؟

كنت أستعيد ذلك اليوم حين سألني: ماذا تحلمين أن تصبحي حين تكبرين يا أفروديت؟

يومها ودون أدنى تفكير، هتفت: أن أصبح جميلة!

نظر إلي بدهشة وابتسم، ولم أستطع أن أحدد إن كانت ابتسامته تلك مؤشراً على خيبة أمله بي، أم على كون حلمي مثيراً للاهتمام، لكنه قال بعد دقائق من الصمت:

- وكيف تصبحين جميلة؟

- أكون مثل الجميلات في التلفزيون.
- هذا سهل ومتاح، مساحيق وطلاء وعمليات تجميل، لكنك تمتلكين أمراً، أكثر فرادة، وتفتقده الأخريات.

رفعت حاجبي بدهشة، وأنا عاجزة عن تصديق هذه الخرافة، ماذا عساي أنا البائسة الفقيرة التي لم تمنحها السماء أية هبة من هباتها، أن تمتلك ولا تمتلكه أولئك الجميلات؟

- تمتلكين الكلمات يا أفروديت، وتستطيعين أن تصبحي أجمل حين تتحدثين.

قطبت جبيني قليلاً، ثم سألته: وما علاقة الكلمات بالجمال؟

- هذا ما لا أستطيع شرحه لك، لكنه يشبه رائحة زهر الليمون حين تفوح في الربيع.

كنت أستعيد كلماته، أتمدد في ظلها، أغمض عيني، أرددها، و أتذوقها على مهل. ولم يمض وقت طويل حتى أدركت أن الدجاجات اللواتي كن ينقرن صدري بمناقيرهن الوحشية، طيلة الوقت، كن يحملن لقباً لطيفاً: الحب!

obeikandi.com

الفصل الثاني عشر

الأموات يتلقون وروداً أكثر من الأحياء

لأن الندم أقوى من الامتنان.

آن فرانك

وضعت الكرسي الهزاز في الشرفة، وجلست أشرب فنجان قهوتي بينما أراقب الحياة التي تحدث في الخارج. في الشرفة المقابلة، كان جاري يشرب أيضاً فنجان قهوة، هو بات يمضي جل وقته جالساً في الشرفة منذ تقاعد من وظيفته في الجيش الشهر الماضي. كان يرتدي قبعة صوفية ومعطفاً بيتياً سميكاً، كما لو أنه لم يلحظ شمس نيسان، وتصدح من راديو صغير قربه أغنية شبابية صاخبة. وأكاد أجزم من جمود ملامحه، أنه لا يستمع إلى الأغنية، لكنها محاولة يائسة منه لاختلاق حياة ما، في بيته الذي يسوده الصمت منذ وفاة زوجته العام الماضي، ثم بات أخرس تماماً بعد أن توقف منبه جواله عن إيقاظه صباحاً، وغاب سائق سيارته العسكرية الذي كان يطرق بابه في الصباح الباكر، ليأخذ المفتاح ويقوم بإحماء السيارة. وبينما أتأمل المشهد الذي بات سريالياً، بعد أن تحولت أغنيات الراديو إلى الروك أند رول، بينما جاري مازال محافظاً على بروده الجنائزي. وقعت عيناي على

ثيابه المنشورة على حبل الغسيل، كان ذاك الحبل يروي بأمانة حكاية البيت الموحشة: بناطلين قماشية حائلة اللون و قمصان كتانية بألوان ترابية، لا ثوب نوم لامرأة، ولا بناطيل جينز لأبناء، لا حب ولا عائلة ولا حياة.

بينما أنقل عيني بين الحبال الموزعة على الشرفات الأخرى، رحت أتأمل كيف أن كل حبل من تلك الحبال البلاستيكية السوداء يروي بإيجاز قصة البيت المعلق على شرفته، كما لو كان بائع كلمات، وإن كان أقل ثرثرة من بائعي الكلمات المألوفين. كان حبل الغسيل في الشرفة المجاورة لشرفة الضابط، يحكي حكايات مرحة عن أمسيات مليئة بالضحكات و الشقاوات والمثلجات التي تترك بقعاً صعبة التنظيف على فساتين ملونة صغيرة، وتفوح رائحة أمان نفاذة من قميص رجالي سماوي اللون يرفرف قرب بنطال جينز نسائي ممزق عند الركبتين، بغواية أنثوية ماكرة. وعلى شرفة أخرى تطل بجرأة ملابس داخلية نسائية، لم تبذل صاحبتها جهداً لإخفائها، بنشر غسيل آخر أمامها او بإبعادها عن الأعين نحو الحبال الخلفية، معلنة وجود امرأة منسية، تشهر أنوثتها أمام الأخرين لتخبرهم أنها مازالت هنا.

ألقيت نظرة على حبل الغسيل على شرفتي، ذاك الصامت الذي لم يعد لديه ما يخبر عنه، ويوجز الحكاية كلها بقميص أسود وحيد، دون أي رفاق آخرين. في لحظة طائشة رغبت بالبحث في خزانتي عن ثوب يملك لوناً كي أنشره على حبلي الحزين، لكني تذكرت أني منذ عدة أيام وضعت جميع أثوابي الملونة وقمصاني وكنزاتي المزركشة في حقيبة كبيرة، تاركة الخزانة فارغة إلا

من الملابس السوداء، التي لا أتمنى رؤيتها على جسد أحد، وأوصلتها إلى مركز لإيواء الأسر النازحة من مناطق النزاعات، لتوزيعها على النساء هناك. كانت تلك واحدة من عدة خطوات اتخذتها خلال الأسبوع الماضي في محاولة تصفية بعض الأمور العالقة بيني وبين الحياة، طالما ما زلت قادرة على الوقوف والسير، ولم ينهشني السرطان كاملة بعد.

اتصلت بصديقاتي اللواتي لم يتوقفن، طيلة الأشهر الماضية، عن الاتصال وإرسال الرسائل، رغم تجاهلي لهن، وتصرفي كما لو كنت تمثالاً جليدياً لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم، كنت حينها أقف مذهولة وسط الريح، التي انتزعت سقف بيتي، وغادرت دون التفاتة إلى الخلف، وقبل أن أتمكن من أن أسألها السؤال البشري الحارق: لماذا أنا؟

حين جاءت أصوات صديقاتي القديمات، لاهفة، حانية، خالية من العتب، كان أول ما قلته لكل منهن، أنني أحببتهن أكثر مما يعرفن، أحببتهن بالطريقة ذاتها التي أحببت بها الحياة، بمزاجيتها وغرائبيتها وكل ما لم أستطع فهمه فيها، واعترفت لهن بأني كتبت بناء على ثرثراتهن وحماقاتهن الكثير من القصص التي كنت أنشرها في الصحف، وأني لولاهن لكنت إنسانة أقل، لكني لم أملك القوة الكافية لإشهار الوادع أمامهن، لذلك لم أعترض حين طالبنني بلقاء قريب، ووعدتهن أن أحاول.

زرت قبر بحر، وزرعت القرنفل على قبره الصغير، ورويت له كل ما حدث في غيابه، حكيت له عن رفيقتي الجديدة التي رحنا سوية وزرنا البحر،

وأخبرته أن أخته الكبرى ستتزوج، وأن أباه سافر منذ خمسة عشرة يوماً ليكون قربها خلال تحضيراتها ليومها الكبير، ورغم تشجيعي له كي يسافر، فأنا أشعر بالوحدة والعجز في غيابه، ولم يكن ممكناً أن أرافقه، لأني سأفسد فرح الصبية، التي تصر على اعتباري ضرة أمها، متجاهلة الطلاق الذي مر عليه منذ أكثر من سبعة عشرة عاماً. وشرحت له بينما تمتزج دموعي بالماء الذي أرشه على قبره، كم بات بيتنا صامتاً وكئيباً، وكيف يأكل الندم روحي لأني كنت أصيح به كي يتوقف عن الصراخ وإزعاج الجيران، ولأني لم أحاول يوماً أن أشاركه ألعابه الصغيرة، وتركته يدور حول نفسه، ويرفرف بيديه، ويقفز عمراً كاملاً وحيداً دون رفقة. ورجوته أن يغفر لي تعبي الدائم، ولهاثي، وقلة صبري، وأني لم أحتضنه بما فيه الكفاية، ولم أخبره كم أحبه، لأني مثل الجميع آمنت بأنه لا يسمع ولا يحتاج إلى تطمينات قلبية.

وقبل أن أغادر المقبرة وعدته بأن نلتقي قريباً، وحينها سأصلح كل شيء.

كان موعد الذكرى السنوية الثالثة لاستشهاد أمي، بعد حوالي الثلاثة أشهر، ولأني لا أريد ترك أية أمور مؤجلة قد أعجز عنها لاحقاً، فقد قررت إحياء ذكراها السنوية مبكراً، وحين أخبرت فتحي بذلك لم يطلب تبريراً، ولم يقل لي أن الرابع من آب لم يأت بعد، وفسرت الأمر بكونه مازال لا يحسن العد، أو أن فتحي الصغير قد كبر أكثر مما أعرف، ولم يشأ أن نناقش حقيقة أنني قد لا أعيش حتى ذلك اليوم.

وخلافاً للموروث الذي يقتضي ذبح خروف وتوزيع لحمه على أهالي القرية، قمنا بتوزيع مبالغ نقدية على فقراء القرية وأراملها اللواتي زاد عددهن بعد الحرب. وفي الصباح الباكر، وبقلبين منكمشين، دخلنا أنا وفتحي إلى مقبرة القرية، نحاول إلهاء أوجاعنا، بالانشغال بالمهمة التي جئنا لأجلها، وهي جعل أمي تغفو تحت سحابة من حبق وقرنفل، دون أن نغفل قبر أبي الذي أصرينا على أن تدفن قربه، رغم أن جميع من استشهدوا في مجازر ريف اللاذقية الشمالي، دفنوا في مراسم تشييع جماعية في مقبرة الشهداء، وكان أملنا أن يمنحها رقودها قرب رفيق عمرها شيئاً من السلام بعد النهاية الوحشية التي ختمت بها حياتها البائسة.

بعد أن انتهينا من زراعة الشتلات، جلسنا أنا وفتحي على حافة القبر، صامتين، نستنشق بخور خشب الصندل الذي يحترق في صحن صغير فوق القبر. وكل منا غارق في أخيلة مريرة حول لحظات أمي الأخيرة وهلعها الأخير. كان ماثلاً أمامي في تلك اللحظة مشهد حفرة ضخمة يتحرك داخلها عناصر الدفاع المدني بملابسهم البرتقالية الفاقعة التي تتنافى بهجتها مع مهمتهم المريرة، المتمثلة بإخراج الجثث من الحفرة، التي كانت أول مقبرة جماعية تكتشف في قريتنا. كنت أنا وفتحي وعدد من الناجين من أهل القرية، نقف عند فوهة الحفرة، نضع مناديل ورقية على أنوفنا لنتحاشى الرائحة الكريهة، ونصلي كي لا يكون أحباؤنا مدفونين فيها، مفضلين أن يبقى مصيرهم مجهولاً، على أن يكونوا ضحايا المجازر الوحشية التي ارتكبها التكفيريون في

القرية. وكان أملنا كبيراً بأن تكون أمي قد اختطفت مع النساء والأطفال، الذين جمعهم التكفيريون في شاحنة كبيرة، وساقوهم نحو جهة مجهولة.

وفي لحظة ما صرخ فتحي، بينما يشير بيده إلى جثة مختفية المعالم، ترتدي ثوباً أبيض عليه ورود خضراء وحمراء: هذه عباءة أمي!

حدقت في الثوب، واستعدت صورة أمي وهي تقف أمامي بعباءتها الجديدة، التي أحضرتها لها في عيد الأم، وتضحك وهي تمسد قماشها برفق على جسدها، وتقول لي بعد تنهيدة: أبوك كان سيحب هذا الثوب الذي يشبه ألوان الحقل في الربيع!

ضممت فتحي إلى صدري، وراح يبكي كطفل صغير، وأنا كنت أبكي أمي وأبكي فتحي معها، فقد كنت أعلم أن الشعور بالذنب يقتله كل يوم. هو الذي يعتبر نفسه مذنباً لأنه نجا من المجزرة، ولأنه كان ذلك اليوم خائفاً كولد صغير إلى حد أنه أضاع أمي.

بعد نجاته من هجوم التكفيريين على القرية، ظل فتحي لأيام صامتاً يرفض الحديث، ويهز رأسه فقط بنعم أو لا. وكنت قد بدأت أخشى أنه قد فقد القدرة على النطق، إلى أن جاء يوم، وبينما أدهن قروح قدميه الدامية بمرهم طبي، همس لي، وهو يبكي: لقد كانت تركض إلى جانبي، ولا أعرف متى اختفت.

نظرت له بحنو، وهمست: هذا ليس ذنبك يا حبيبي، لا تلم نفسك.

وبينما يبلل يدي بدموعه، حكى لي كيف استيقظ فجراً على صراخ أمي، وهي تهز كتفيه كي ينهض، بينما تصيح بأن التكفيريين قتلوا الجنود الذين كانوا يحمون مدخل القرية، وراحوا يقتحمون البيوت، ويقتلون أصحابها النائمين في أسرتهم، وكان صراخها يمتزج بالتكبيرات وأصوات الرصاص والقذائف.

- خرجنا من البيت، ورحنا نركض، كنت حافياً، وكانت حجارة الطريق تجرح قدمي، وكنا نسمع صيحات التكبير وراءنا، وأصوات الرصاص، وصرخات أهالي القرية.

كان الهاربون قلة من المحظوظين الذين كانت بيوتهم بعيدة عن مدخل القرية، وتسنى لهم أن يعرفوا بهجوم التكفيرين على حاجز الجيش، فشكلوا حشداً بشرياً راح يركض نحو الأحراش، ولم يكن ممكناً بأي حال من الأحوال أن يلتفت أحد منهم إلى الخلف. وفتحي الذي ركض كثيراً ولم يعد قادراً على الركض أكثر، رمى بجسده خلف صخرة تسترها شجيرات شائكة، وظل مختبئاً إلى أن خفت صوت القذائف. وبعد مضي وقت، لا يستطيع أن يحدده، قرر معاودة السير، وما أن نهض من بين الشجيرات، حتى سمع صوتاً يصيح: سلم نفسك! رفع فتحي يديه، واستسلم لمصيره، بينما يتصور أنه سيرى خلفه داعشياً يحمل سيفاً، لكنه رأى جندياً سورياً، يوجه نحوه

obeikandi.com

بندقيته، وبعد أن أدرك كل منهما أن الآخر ليس عدواً، قال له الجندي: لا تخف، أنت بأمان.

علا صوت فتحي فجأة: هيا بنا يا أفروديت.

نظرت إليه، كان يقف قربي، يتأملني بعينين مليئتين بالدموع، وقد مد يده نحوي، كما لو أنه يريد أن ينتشلني من أخيلتي الفجائعية، وبينما يبتسم كأب صغير، شدني من يدي كي أنهض، وسرنا معاً تاركين وراءنا سحابة من رائحة الحبق.

obeikandl.com

الفصل الثالث عشر

إن كان لا شيء سينقذنا من الموت
فلينقذنا الحب من الحياة على الأقل.

نيرودا

لطالما أمنت بأن بإمكان الحياة أن تكون أسوأ مما هي عليه، في غياب منطق واضح لتقلبات مزاجها التي لا يمكن التنبؤ بأسبابها، أو بتوقيتها. علاوة على نفيها الدائم للفلسفة البشرية التي تفترض وجود حكمة وراء كل محنة أو خيبة. فتؤكد لنا مرة تلو أخرى أن ثمة خيبات لا حكمة وراءها على الإطلاق، هي مجرد خيبات لا أكثر. وبناء على قبولي المسالم لطبيعة الحياة، فقد دربت نفسي على الامتنان تجاه كل ما أحصل عليه، دون ارتكاب حماقة مقارنته بما أتمناه أو أراه في أحلامي، التي غالباً ما كنت أنفضها عن كتفي كل صباح، كي أستطيع البقاء على قيد الاستيقاظ في حياة يومية صارمة لا يهمها من نحن أو من نتمنى أن نكون.

كنت أردد دائماً كلمتي السحرية: شكراً! أمام كل تيسير بسيط أصادفه في يومي، وإن كان مجرد العثور على مقعد شاغر في الباص، أوعدم الانتظار

obeikandl.com

طويلاً أمام الفرن، أو عصر أنبوب معجون الأسنان الفارغ، والحصول على بعض المعجون المتبقي. وكانت هذه الكلمة بمثابة تعويذة سرية تنقذني من الألم.

ألم يقل بوذا إن الألم هو الرغبة؟ حسناً كان محقاً، لكنه سيكون دقيقاً أكثر لو أضاف إلى الرغبة القدرة على الحلم، التي هي في الواقع متاحة أمام جميع البشر، لكن قلة منهم فقط يمارسونها، وبعضهم يبدع فيها. ومن هؤلاء القلة كنت أنا التي عشعشت القصص الخرافية وحكايات الجنيات في تلافيف دماغي، وجعلتني أعيش على أهبة المعجزات والأعاجيب، لكني صممت ألا أسمح لتلك المقدرة بتعكير صفو وجودي على هذه الأرض فقيرة الاحتمالات.

كنت قد تخرجت للتو من كلية الآداب قسم اللغة العربية، بتقدير جيداً جداً، وحصلت على وظيفة مدققة لغوية في دار نشر في المدينة. بإمكاني أن أصف تلك المهنة بالمؤلمة نظراً لكوني كنت مسؤولة عن تدقيق أخطاء أدباء مشهورين، تصدمني ضحالة لغتهم وجهلهم بأبسط قواعد اللغة، وكان مطلوب مني علاوة على تصحيح أخطائهم الفادحة، أن أعيد صياغة بعض الجمل الركيكة. وكان الأمر بمثابة وضع مساحيق تجميل على تشوهاتهم، وجعلهم يلمعون بكمال مجرة. وكان هذا يجعلني بصورة أو بأخرى شريكة في التآمر على الجمال والحقيقية. لكن ومن جهة أخرى كنت ممتنة فعلاً لأني وجدت عملاً دون أن أختبر السير في درب آلام الخريجين الجدد، إذ يبدو أني

كنت أول من قرأ الإعلان المنشور في الصحيفة، والذي يطلب موظفة حاصلة على شهادة أدب عربي، وبالتالي صار لدي دخل مادي مقبول، أرسل قسماً منه لأمي، وأستخدم الباقي في دفع الإيجاروشراء الطعام، دون أن أنسى وضع مبلغ بسيطً في حصالة نقود فخارية على شكل خنزير صغير، أحتفظ بها منذ أيام الجامعة، وكنت أضع فيها المال الذي أحصل عليه من كتابة حلقات البحث لزميلاتي، والتي كانت بمثابة متابعة لمهنتي، التي بدأتها في المدرسة بكتابة مواضيع التعبير والرسائل الغرامية مقابل قباقيب السكر، لكني سرعان ما استعضت عن تلك المهنة بكتابة دراسات عن مسرحيات وروايات أرسلها إلى الصحف والمجلات الأدبية، ويحظى بعضها بفرصة النشر. وكان ذلك بمثابة رحلة في النهر نحو الضفة الثانية، التي كنت أرى نفسي فيها كاتبة لها اسم وقلم. ولم يمض وقت طويل حتى بدأت أكتب قصصاً قصيرة، وعموداً صحفياً أسبوعياً في إحدى الجرائد المحلية، وتوقفت عن كتابة حلقات البحث للرفيقات، لأني قررت ألا أهدر كلماتي عبثاً، بعد أن اكتشفت أوعية غير مثقوبة يمكنني أن أحفظها فيها.

كنت قد استأجرت غرفة صغيرة في ضاحية قريبة من المدينة، كانت غرفتي ضيقة وخانقة، ولم أكن أستطيع أن أفتح نافذتها الوحيدة كونها تجعل الغرفة مكشوفة بالكامل على الشارع. كانت باردة في الشتاء، وحارة في الصيف، فيها سرير وخزانة وثلاجة صغيرة وبوتاجاز بعين واحدة، وتتوسطها طاولة صغيرة أستخدمها لتناول الطعام والكتابة. كان بإمكاني

أن أصفها تبعاً لجفافها وخلوها من حياة أو شمس، بأنها زنزانة صغيرة، لكني كنت أفكر في الرجل المشرد، الذي ينام في علبة كرتونية كبيرة في مدخل الحارة، فأشعر بأن هذا المكان الضيق هو عش صغير يأويني وأحلامي، فالخيار الآخر المتاح أمامي كان العود ة إلى القرية، حيث لا خيارات أكبر من أن أصبح معلمة في مدرسة قريتنا البائسة.

كان كل شيء في حياتي يملك وجهين واحتمالين ولقبين، إلا شعوري بالوحدة كان واحداً من أية جهة أنظر إليه. ولم أستطع أن أطلق عليه اسماً أقل وطأة، إذ لم يكن هناك وصف آخر ممكن لتلك الوحشة القاسية، التي تملك أصابع عديمة الرحمة تضغط على عنقي، وتكاد تخنقني.

وسرعان ما اكتشفت أن الضوضاء التي كانت تحيط بي دوماً، وتفقدني صوابي، كانت تحميني من رفقة نفسي والاستماع لتلك الأصوات التي تتصارع داخلي: صياح أمي وطلباتها التي لا تنتهي، خوار عزيزة، ثرثرات فتحي وزعيقه، حكايات رفيقاتي، وانشغالي الدائم بالدراسة والتحضير للامتحانات. كل تلك الضوضاء استبدلت فجأة بهدوء بلا رحمة، يضعني في مواجهة وحشتي البشرية، وهواجسي المبتكرة حول عذابات محتملة في الغد، وخوفي الأبدي من أن أشيخ وحدي.

لكن لحسن الحظ كانت تلك الأفكار والهواجس، التي تتضخم خلال المساء والليل، تتضاءل مع حلول الفجر، وبدء دوران عجلة النهار بما يرافقها من لهاث يومي يبدأ بانتظاري قدوم الحافلة ثم الترجل منها، والركض

للوصول إلى دار النشر في الوقت المحدد، لتحاشي نظرة مدير الدار المتعالية بينما يسألني عن سبب التأخير، رغم معرفته أني لا آتي إلى العمل بسيارتي المرسيدس مثله، ثم إنهاء العمل المطلوب مني، ومغادرة الدار عند الساعة الثالثة ظهراً للوقوف في موقف الباص وانتظار الحافلة من جديد، ثم انتظار دوري في الطابور أمام الفرن، وشراء مستلزمات الغداء البسيطة، التي غالباً ما تكون بعض الخضروات، علبة سردين، بيض، أو ظرف معكرونة، والعودة إلى غرفتي لإعداد الغداء. لكن وبعد توقف تلك العجلة عن الدوران، وفي حال لم يكن لدي ما أكتبه أو أقرأه، كنت أمضي فترتي العصر والمساء وأنا أحدق في السقف، وسرعان ما أشعر بأصابع الوحدة الخشنة حول عنقي.

وهكذا كان اكتشافي الأول في حياتي الجديدة هو أن الوحدة تكشف الرضوض الموجودة في النفس، وبالتالي فإن الآخر يحمينا من أنفسنا.

لكن الاكتشاف الثاني، الذي يمكن اعتباره نقطة تحول في حياتي، هو جدوى عدم مقاومة الإنسان لما تختاره الحياة له، والقبول أحياناً بأن يكون ريشة تحملها الريح أينما شاءت، فقد يحدث وتحمله يوماً إلى أمكنة ما كان أبداً ليعرف الطرق المؤدية إليها.

كان يوم عيد العمال، عطلة رسمية، منحتني ساعة نوم إضافية، ويوماً كاملاً للاسترخاء دون لهاث. كنت أعلم أن مورفين الراحة هذا لن يدوم طويلاً، وستبدأ أثاره الجانبية بالظهور بمرور الساعات، لكني لم أبخل على نفسي بالاستمتاع بالاسترخاء في سريري، والتفكير بأن كل شيء يسير على ما

يرام. كنت قد قبضت راتبي، ودفعت إيجار الغرفة، واشتريت طعاماً يكفي لأسبوع، ولن أحتاج سوى لشراء الخبز، وكتبت عمودي الصحفي الأسبوعي، ولم يبق أمامي شيء لفعله. كان قلبي قد بدأ بالانقباض بينما أفكر كيف سيمضي هذا اليوم، وفجأة وقعت عيناي على بطاقة المسرحية الموضوعة على الطاولة، والتي أعطاني إياها أمس كاتب أتولى تدقيق كتابه، وأخبرني إنها عن شيترا الفارسة المسترجلة، التي ابتدعها طاغور. نهضت من سريري وتناولت البطاقة لأتحقق من موعد المسرحية: الساعة السادسة عصر اليوم. حسناً لا ضير من تمضية الوقت في المسرح، رغم أني لست من هواته، إلا أنني قررت الذهاب، بناء على أن السأم بين الناس وأصوات فصفصة بذر دوار الشمس وزعيق الممثلين، أفضل بآلاف المرات من السأم في غرفتي وأنا أحدق في السقف.

وصلت إلى المسرح متأخرة، كان باب الصالة مغلقاً. كنت على وشك أن أدير ظهري وأغادر، حين نظر إلي شاب يقف قرب الباب، يبدو أنه موظف في المسرح، وقال: تريدين الدخول؟

ابتسمت له، ومددت له البطاقة، تناولها، ثم فتح باب الصالة وأشعل مصباحاً صغيراً، أضاء لي الطريق وسط الصالة المعتمة. بعد دقائق من البحث، أضاء أمامي مقعد مطوي، تكفل الرجل الجالس في المقعد المجاور بفتحه لي كي أجلس، شكرته، دون أن أراه إذ لم تكن عيناي قد ألفتا الضوء بعد.

على خشبة المسرح كانت امرأة ترتدي ملابس فارس، تطلق صيحات استفزازية، بصوت تحاول جعله خشناً، بينما تبارز فارساً آخر.

استعدت في ذهني تفاصيل المسرحية، التي سبق وقرأتها حين كنت في السنة الجامعية الأولى، كانت تلك شيترا الفارسة، التي أراد والدها مولوداً ذكراً وحين جاءت هي، اعتبرها ابنه المنتظر، وأنشأها تنشئة الذكور، وعلمها كيف تحمل السلاح، و ألبسها أزياء الرجال.

غادر الفارس، الذي كانت شيترا تبارزه، وبينما جلست لتستريح على الأرض، ظهر على خشبة المسرح فارس وسيم منهمك في تلميع سيفه. وقفت شيترا وراحت تتأمله، وهي تضع يدها على قلبها، الذي يبدو أن شرارة الحب قد اندلعت داخله.

شيترا، التي باتت ترتدي ثوباً مذهباً وقلائد عديدة وأساور، واقفة أمام الفارس الوسيم، تقول له: أنا أحبك يا أرجونا!

فيقول لها: لقد نذرت نفسي للعزوبة فلا أصلح أن أكون زوجاً لك يا شيترا!

يغادر أرجونا المسرح، وشيترا، المطعونة في قلبها، تشكو أمرها لإله الحب: يا قاهر العالم، ارفع عن جسدي ما فيه من مظاهر استرجال وقبح، واجعلني جميلة ليوم واحد، اجعلني رائعة الجمال مثل جمال الحب المزدهر في قلبي، امنحني يوماً واحداً قصيراً من الجمال الكامل، ولك مني الطاعة في كل أيامي الباقية.

واستجاب إله الحب لتضرعات شيترا العاشقة، وقال لها: لن أمنحك يوماً واحداً من الجمال فحسب، بل سأجعلك جميلة، تكسوك أزهار الربيع لمدة عام كامل.

غرقت خشبة المسرح في الظلام، ثم ظهرت شيترا ضمن بقعة ضوء ملونة، وقد باتت تملك شعراً طويلاً ذهبي اللون، وشفتين كرزيتين، ووجهاً بالغ الرقة. دخل أرجونا إلى بقعة الضوء وراح يتأملها، وسرعان ما نسي أنه نذر جسده للتبتل، وسرعان ما اتحد جسداهما في عناق طويل.

في المشهد الأخير، وبعد انقضاء العام، كانت شيترا تبكي بينما تقول لإله الحب: هذا الحب سيضيع مني، وسيسقط هذا الجمال المستعار عني، لأنه جمال كاذب أعيش في ظله.

كانت شيترا قد انهارت على الأرض وهي تبكي، وبينما أتأملها كنت أفكر في الصراع الأزلي بين الجسد والروح. وكيف يؤجج الحب هذا الصراع حين يتجاهل إلقاء نظرة نحو الروح حين يكون الوعاء الذي تسكنه تلك الروح ليس جميلاً. وما لبث أن مثل أمامي طيف محمد، زميلي في الجامعة، الشاب البدين طيب القلب، الذي كان رفيق الجميع لرقة روحه، واستعداده الدائم للمساعدة، والذي ظل وجهه الباكي محفوراً في ذاكرتي، يوم تسرع واعترف بحبه لرفيقة له، فكان ردها الجاف والقاسي على اعترافه العاشق بأن عليه أن يحلم على مقاسه!

سألني يومها، والدموع تفيض من عينيه: كيف أقيس نفسي يا أفروديت؟ هل قياس محيط خصري يحدد مقاس روحي وفيض مشاعري وإنسانيتي؟

رغم إدراكي أن الحقيقة تلسع القلب، إلا أني حاولت أن أتحايل على مرارتها، وابتكرت لأجله كلمات حلوة الوقع، تخبره بأن عليه أن يبقى على أهبة الاستعداد، لأنه يوماً ما سيلتقي رفيقة روحه، التي ستنظر إليه فترى دفء قلبه ورحمة عينيه وكرم روحه. ورغم أنه ابتسم لي من بين دموعه، إلا أني كنت أشعر بألم لاذع في قلبي، لأني مثله، أشعر بتلك الدونية القاسية. ورغم أني لم أصادف من يتنمر علي في الجامعة، فقد كنت لا أزال تلك الفتاة الخجولة البائسة، التي تشعر بالخجل كلما نطقت اسمها، وتتصور أنها ستتلقى إهانة أو كلمة سخرية.

على خشبة المسرح، كان أرجونا واقفاً أمام شيترا، التي استعادت هيئتها الذكورية، وعوضاً عن أن يتخلى عنها أرجونا ويرحل،قال لها وهو يمسك يديها: يا حبيبتي، لقد اكتملت حياتي الآن!

أحدهم صاح من الخلف فجأة: كذاب يا شيترا لا تصدقيه، سيهجرك بعد يومين!

أثارت عبارته الساخرة ضحكات عديدة في المسرح، ولم أتمالك نفسي، ورحت أضحك أنا أيضاً. ففي الحقيقة كان هذا السلوك على فظاظته، هو أفضل ما حدث في تلك المسرحية الأفلاطونية.

أسدلت الستارة على عناق طويل بين أرجونا و شيترا، وبدأ الجمهور بالتصفيق، بينما بدأت المصابيح تنار في الصالة. وحين رفعت الستارة، وقف الجمهور، وتابع التصفيق لأبطال المسرحية.

من بين ضجيج التصفيق، تسلل إلى أذني صوت الرجل الواقف قربي، يهتف: أفروديت!

التفت إليه وقد اضطرب قلبي لسماع تلك النبرة التي لم أسمعها منذ سنين، رأيته، كان يحدق إلي بدهشة، و يبتسم بحنو أب يرى ابنته، وقد كبرت فجأة.

لم أعرف ماذا أقول، عدت للحظات أفروديت الصغيرة، التي تسترق النظر إليه بصمت، وتفكر بأنه فريد من نوعه في العالم.

أمام ذهولي، وخرسي المباغت، الذي كان مألوفاً لديه، مد يده والتقط يدي، وهمس: يا للصدف العجيبة!

همست بصعوبة: فعلاً.

غادرنا معاً الصالة، التي دخلتها منذ ساعة، وحيدة ومترددة. و بينما أرتجف من الاضطراب، رحت أسترق النظر إليه، كان يرتدي قميصاً بمربعات زرقاء و بيضاء مفروداً فوق بنطال قماشي أزرق، وقد بات لديه شعر أبيض كثير، لكنه مازال كثيفاً كما كان، وثمة تجاعيد جديدة باتت ترتسم حول عينيه كلما ابتسم، لتخبر أن عمراً قد مر، منذ ابتسم لي آخر مرة. و بينما نمشي باتجاه مقهى الرصيف المجاور للمسرح، كنت ألوم نفسي بحنق

لإهمالي مظهري، إذ كنت مقارنة بأناقته اللافتة، أبدو فتاة بائسة ببنطال جينز قديم وكنزة قطنية رخيصة.

طلب لنفسه فنجان قهوة ولي عصير برتقال، لم أطلب قهوة، كما لو أنني خجلت من الاعتراف بأني كبرت في غيابه، وصرت أتجرأ على تناول مشروبه الخاص. وخلال دقائق اختصر لي كل ما حدث في السنوات الماضية: هو وكاترين انفصلا، صار اسمها كاترين وليس كات، وانتقل للعيش في سورية، ويعمل على تأسيس مجلة أدبية. و حكى لي عن زيارته القرية الشهر الفائت، وأنه التقى فتحي وسأله عني، واستاء جداً لأن فتحي لم يكمل دراسته.

ثم همس بصوت موسيقي : أقرأ مقالك الأسبوعي يا أفروديت، يمنحني ابتسامة عريضة أسبوعية.

شعرت بالخجل، وهمهمت بعدة كلمات غبية، بينما يتأملني بعذوبته القديمة ذاتها. و كنت ألعن نفسي في سري لأني لم أمسد شعري بمكواة الشعر، ذلك الاختراع السحري، الذي يحول شعري من خشن ومنفوش إلى سنابل قمح لامعة، لكني فكرت بأنه ربما ما كان سيتعرف علي، علاوة على أنه قال لي يوماً أنني أصبح جميلة وأنا أتحدث، لذا كنت أحاول عبثاً التغلب على خرسي المباغت أمامه.

حين جلست إلى جانبه في سيارته الفضية الصغيرة، ليوصلني إلى البيت، سألني: ماذا تحبين أن تسمعي يا أفروديت؟

ارتبكت واستعدت يوم سألني إن كنت أحب الكتب. ففي الحقيقة، أنا لم أكن أحب الاستماع إلى الأغاني، ولم يكن لدي مطرب أو مطربة مفضلة، ولطالما فضلت الصمت على أي صوت آخر، لكني كما العادة، لم أجرؤ على إخباره بذلك، بل قلت له بخجل: اخترأنت.

تابعنا الطريق، ونحن نستمع إلى أغنية فيروز: (بيت ظغير بكندا)، وكنت أفكر بأن الأغاني ضرورية فقط لمن يستمعون إليها، بينما براعم صغيرة تزهر في صدورهم.

كنا قد اتفقنا على اللقاء في مساء اليوم التالي، إذ لحسن طالعي، كان ثمة مهرجان سينمائي مستمر على مدى أسبوع، وكان سعد قد حصل على بطاقات لحضور المهرجان، وكان لديه بطاقات إضافية لرفيق، وسألني إن كنت أحب أن أكون هذا الرفيق، وهززت رأسي موافقة بفرح طفلة، وأنا أكاد لا أصدق أنني لا أحلم.

تلك الليلة، وبينما أنا مستلقية في سريري أتأمل انعكاس أضواء الشارع، ومصابيح السيارات العابرة على سقف الغرفة، كنت أتخيل زيوس بوجه غاضب و قد ربط هيرا إلى جذع الشجرة، التي كانت إيوا مربوطة إليها، وبنفخة سحرية واحدة أعاد لحبيبته إيوا هيئتها البشرية، وعانقها بحنو أمام عيني هيرا التي أصيبت بالخرس.

مر الأسبوع سريعاً، كنا نحضر الفيلم ثم نجلس قليلاً في مقهى الرصيف المجاور للسينما، وغالباً ما كنا نذهب إلى الكورنيش، نتمشى،

ونأكل عرانيس الذرة وغزل البنات، ثم نجلس على المقاعد الحجرية نشرب القهوة. كنا نضحك كرفيقين قديمين، يملكان ذخيرة من الذكريات المشتركة، التي صنعتها تلك المكتبة، التي أطلت التحديق إليها يوماً، واعتقد هو، عن طريق الخطأ، أنني أهوى الكتب!

وفي نهاية اليوم، كنت أقف خلف النافذة التي بت أفتحها كل ليلة، لألوح له، كي يطمئن أني وصلت غرفتي بأمان، إذ كانت تقلقه المسافة التي علي أن أقطعها في مدخل البناء الطويل، حتى أصل غرفتي (يا للعذوبة!).

يوم حضرنا الفيلم الأخير، وبعد أن أوصلني إلى البيت، فتحت النافذة، وعوضاً عن ألوح له كما كل ليلة، همست له: أستاذ سعد!

ترجل من سيارته، وقد بدا القلق واضحاً على وجهه، واقترب من النافذة، وهمس: ماذا هناك يا أفروديت؟

ترددت قليلاً، لكن لم يكن هناك مجال للتراجع وقد بات واقفاً أمامي، فهمست بصوت مبحوح:

أردت أن أقول لك إني كنت أعرف الكلمتين السحريتين.

- ماذا؟

- كلمتا بائعة الكلمات.

قال وقد ارتسمت ابتسامة على وجهه: آه، كلمتا إيزابيل الليندي!

openkandil.com

صمت للحظات، ثم همست بصوت خفيض، بينما أتحاشى النظر في عينيه: لكني سألتك عنهما، لأني أردت أن أسمعك تقولهما.

كان بيننا خمس عشرة سنة، وعشرات المجرات والنجوم التي تتآمر المرة تلو الأخرى لتتقاطع دروبنا، وكنا نعلم أننا قادران على أن نجعل هذا العالم أقل فوضى ووحشية بما نملكه من نداوة الحب، وفطرته.

وهكذا كان.

obeikandl.com

الفصل الأخير

أيها الموت، أيها القبطان العجوز،
حان الوقت، فلنرفع المرساة.

بودلير

في بلاد غابرييل غارسيا ماركيز، التي شهدت مائة عام من العزلة، دخل خوسيه أركاديا بوينديا يوماً إلى مشغل ابنه، وسأله:

في أي يوم نحن؟

فأجاب: إنه يوم الثلاثاء.

فقال خوسيه: هذا أيضاً ما ظننته أنا، لكني انتبهت فجأة إلى أننا ما نزال في يوم الاثنين مثل البارحة، انظر السماء، انظر الجدران، انظر البيغونيا! اليوم هو الاثنين أيضاً!

وفي اليوم التالي دخل خوسيه إلى المشغل، وقال لابنه: هذه كارثة انظر الهواء، اسمع أزيز الشمس، إنه مثل الأمس، وأول أمس، فاليوم هو الاثنين أيضاً!

obeikandl.com

وحين حل يوم الجمعة، وعندما تحقق خوسيه من أن شيئاً لم يتزحزح من مكانه، ومدفوعاً بقوة شيطانية خارقة، أخذ يصرخ بلغة غير مفهومة، وحطم كل ما رآه أمامه.

تعاون أربعة عشر رجلاً على تقييد خوسيه، وجروه حتى شجرة الكستناء، حيث تركوه مربوطاً إليها، وهو يعوي ويصرخ بلغة لم يسمعها أحد من قبل.

قال سكان البلدة إن خوسيه قد جن، وظلوا يكررون يوم الاثنين يوماً بعد يوم دون أن يشعروا بالسأم أو تستفزهم حماقة الزمن.

وأنا مثلهم كنت أشيح بعيني وأذني عن صراخ خوسيه، وأكرر يوم الاثنين دون اعتراض، إلى أن فتحت عيني أمس، و وجدت نفسي مرتمية على بلاط المطبخ، وحولي زجاج فنجاني المكسور وقهوتي مسكوبة على الأرض. وعرفت حينها، أن يوم الثلاثاء قد حل أخيراً، لكني لم أستطع أن أجزم كم سيطول هذا اليوم.

ولو كان لي أن أتخيل مشهداً واحداً يلخص حياتي اليوم، لكان مقعدا خشبياً في محطة حافلات خاوية، وأنا جالسة أنتظر.

ليس انتظاراً سيئاً بأي حال، فلطالما كانت علاقتنا جيدة أنا والانتظار، فأنا لم أحاول يوماً أن أتخطى دوري في طابور، أو أن أسرع خطاي لأصل أولاً إلى مقعد شاغر في حافلة، أو أتذمر من تأخر أحد عن موعده معي. لم أشتك

يوماً من الانتظار، ولم أتحايل عليه قط، و تصرفت أمامه بنزاهة طفل لم تفسد علاقته مع ثيمات الحياة بعد.

لكن الانتظار الذي كان سابقاً رشة السكر التي تتلو خبزي حلماً أو أمنية، بات اليوم هو خبز يومي الوحيد، بعد أن تلاشت جميع الأحلام والرغبات.

هذه الليلة وبحلول منتصف الليل، صحوت فجأة، كما كل ليلة، منذ أكثر من خمس عشرة سنة، لأتحقق من أن بحر، لم يرم غطاء سريره على الأرض، لكني حين التفت إلى كرسي الخيزران الهزاز قرب سريري، رأيت الرجل ذا البذلة السوداء الأنيقة، وهو يحدق إلي، بينما يسند رأسه بيده، وحين لاحظ نظراتي المتسائلة همس:

لا داع لأن تنهضي يا أفروديت، لأن بحر قد غادر.

همست بصوت مبحوح: وأنا متى سأغادر؟

نظر إلى ساعته ذات السلسلة، وقال: ليس الليلة يا أفروديت.

- حسناً.
- نلتقي غداً.
- نلتقي غداً.

اللاذقية- ٨-٦-٢٠١٧

ريمة راعي

obeikandi.com

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذو جودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017

obeikandl.com